السلام العظيم

بقلم راجا هوثيسنج

الصحفي الهندي المعروف وصهر الزعيم جواهرلال نهرو قائد الهند

السلام العظيم

السلام العظيم

راجا هويشنج

الناشر: وديع سعيد

THE GREAT PEACE by Raja Hutheesing
Published by Harper & Brothers, Publishers, New York

الجزء الأول

رحلة إلى المدينة المسورة

إنه لتضليل أن يدعى أى حاكم مستبد أنه يسعى لتوحيد الشعب ، فذلك مستحيل . إنه لا يحكم الشعب برفق ، بل يسلبه حقه فى الحرية . وما يسمى بالسلام العظيم فى الحكم المستبد المطلق ، إنما يحتوى دائماً على بذور الفساد والانحلال .

مونتسكيو

الفصل الأول

جولة مسيرة



يتكلم الجاهلون ،
بينما يسكت العالمون —
ذلك ما قاله لاو — تسو .
فإذا صدقنا أن لاو — تسو نفسه ،
كان من أولئك العالمين ؛
فكيف إذن وضع كتاباً
من خمسة آلاف كلمة ؟

« بوتشو — اى »

جاءتنى الدعوة إلى زيارة الصين بالنيابة عن جمعية الصداقة الهندية الصينية ، فى أوائل سبتمبر ١٩٥١ . وكنت إذ ذاك قد طلقت السياسة واحترفت الصحافة بعد جهاد عدة سنوات فى سبيل الحرية كعضو عامل فى المؤتمر الوطنى الهندى ، وكنت إذ ذاك أشعر بفشل أمل الشعب الهندى فى مكافحة الفوضى والاضطهاد والفقر ؛ فقد كانت زعامتنا ناقصة ؛ وظلت الملايين تعانى الجوع والجهل . وبدت الصين كأنها اهتدت إلى طريقة جديدة فى إصلاح حالة الشعوب الآسيوية ، مما رغبنى فى الاطلاع على ذلك بنفسى .

وفى الحق أن اهتمامى بالصين بدأ منذ عام ١٩٣٧ عندما عينت سكرتيراً للجنة مساعدة الصين فى المؤتمر الوطنى الهندى ، فساهمت فى إرسال وحدة طبية إلى تشونكين ، رمزاً إلى عطفنا على الشعب الصينى فى كفاحه ضد العدوان اليابانى . ومنذ ذلك الحين قرأت كل ما وقع فى يدى من كتب عن الصين . وكان « ادجار سنو » وغيره من كتاب الغرب يمتدحون ما قام به ماو تسى — تونج فى ينان، ويقولون إن الحزب الشيوعى يجدّ فى إصلاح الأراضى فى سبيل توحيد البلاد وإنشاء إدارة تقدمية فيها .

وكنت مدركاً أن الاستبداد والفساد قد طغيا على الشعب الصينى عدة أجيال ، فعانى من الاستعمار ما كنا نعانيه فى الهند ، ومع ذلك احتفظ بابتسامته الوادعة وحبه للسلام . وعاشت الصين والهند ألفى عام كجارتين مسالمتين فى اتفاق ووئام ، تتبادلان المعلومات فى الفن والدين والفلسفة والأدب . وها هى ذى الصين اليوم قد اتحدت بعد سقوط شيانج كاى — شك وجرت فيها تغييرات عظيمة تحت زعامة ماو تسى — تونج والحزب الشيوعى . وزعم الحزب الشيوعى فى الهند أن مستوى المعيشة فى الصين آخذ فى التحسن يوماً بعد يوم ، وأن مشاريع وادى النهر الكبير أنجزت قبل مواعيدها بمحض إرادة العمال .

وكان الشيوعيون يؤكدون — وما زالوا يفعلون — أن دول الديمقراطيات الشعبية بريئة من معسكرات الاعتقال والإرهاب وتقييد حريات الفرد ،

وأن الديكتاتورية فيها لا تتناول إلا شرور المفاسد والرجعية والاستغلال الاستعماري . وما كان لنا نحن فى الهند أن نرتاب فى تلك المزاعم ، بل سرنا أن تجد جارتنا العزيزة سبيلها إلى إسعاد شعبها . ومن ثم خيل لى أن زيارة الصين قد لا تخلو مما ينفع بلادى ، ولذلك رحبت بتلك الفرصة السانحة ، وقضيت فيها ستة أسابيع من شهرى أكتوبر ونوفمبر عام ١٩٥١ . واتفقت مع شركة الصحافة الهندية على أن أبعث إليها بتقارير تنشر فى مختلف الصحف .

وكان برنامج الزيارة يتيح لى قضاء أسبوعين فى بكين بمناسبة الاحتفال بالعيد الثانى لتأسيس ديمقراطية الشعب ، فى أول نوفمبر ١٩٥١ ، ثم زيارة موكدن وتينتسين ونكين وشنغهاى وكانتون للاطلاع على التقدم الزراعى والصناعى فى الصين الجديدة . وكنا فى تنقلنا من مدينة إلى أخرى ومن مصنع إلى آخر ، نصغى إلى خطب تشرح ما تحقق من إصلاح منذ تحرير البلاد على يد الحزب الشيوعى . وكان الوزراء والحكام ومديرو المصانع يكررون نفس الحقائق المملة التى تبين فيما بعد أنها مجرد ادعاءات للدعاية . وكانت الصحف والمجلات والكتب تتبع نماذج مقررة ، لا أثر فيها لاختلاف فى الرأى أو مجال للاجتهاد والمناظرة . وكنت كزائر أتنقل كآلة صماء مسيرة ، لأرى وأسمع فقط ما يؤول إلى تمجيد الدولة الدكتاتورية ، فأدركت أن الشيوعية هى إله الصين الجديد ، — التنين المقدس .

في البركة السوداء مياه عميقة بلون الحبر
يقال إن فيها تنيناً لم يقع عليه البصر .
على جانب البركة أقاموا معبداً ووضعوا له شعائر
إنما التنين وحده يظل تنيناً ، ولكن البشر قد يجعلون منه إلهاً .
« بوتشو – اى »

* * *

ولما عدت إلى الهند ، كان من الصعب علىّ استخلاص الحقائق من بين ما تجمع فى مخيلتى من أخيلة وأوهام . فوددت لو أمكن تكرار الزيارة طايقاً من واجبات الضيف نحو مضيفه ، لأتثبت مما رأيت فى الزيارة الأولى أو أنقضه . وكنت أعلم أن شركة الصحافة الهندية ترغب فى تعيين ممثل دائم لها فى بكين ، ليزودها بأنباء عن الصين ، وأن حكومة الهند أيضاً تريد توثيق الصلات بين الشعبين بإنشاء وكالة أنباء مستقلة . ولذلك أمسكت عن التحدث عن الصين ، خشية أن تقفل أبوابها فى وجهى .

وفى مارس ١٩٥٢ أعلنت حكومة الهند أن بعثة ثقافية رسمية ستزور الصين بمناسبة الاحتفال بأول مايو ، ولم أتردد فى القبول عندما عرضت على شركة الصحافة الهندية السفر إلى الصين كصحافى ، رغم علمى بما يلاقيه الزائر المستقل من مصاعب فى التنقل والعثور على أماكن يقيم فيها . وكان لا بد من الحصول على بطاقة تحقيق شخصية ، وإذن بالسفر من مكان إلى آخر ، وتسهيلات لاستبدال النقد . ولذلك كلفت وزارة

الخارجية قبل سفرى الإيعاز إلى سفيرنا فى بكين ، السيد بانيكار ، بإعداد كل ما يلزمنى ؛ وسافرت تتنازعنى الهواجس لعلمى أن الصينيين إنما يرحبون بالصحافيين الشيوعيين فقط .

ومما زاد فى مصاعبى حادث وقع عند وصولنا إلى كانتون . فقد أراد أحد أعضاء الوفد أن يلتقط صورة لطفل صينى فقير يحمل على ظهره طفلا آخر . فلما التقط الصورة ، صوبت بدورى آلتى لالتقاط صورة وإذا المترجم الذى يصحبنى يعترض ويمنعنى من ذلك . وأخبرنى سكرتير الوفد صباح اليوم التالى أن السلطات الصينية شكت فى أنى أحاول التقاط صور « لمناطق محظورة » . فدهشت وعرضت تسليم أفلامى ، فاكتفوا بالقول إن علىّ كمراسل أجنبى أن أحصل على إذن باستعمال آلة التصوير . وظننت أن المسألة انتهت عند ذلك الحد . ولكنى لما ذهبت إلى السفارة فى بكين لتسلم أوراق اعتمادى ، اضطررت إلى الانتظار سبعة أيام ، لأن « سعادة السفير » الهندى السيد « بانيكار » قرر أنى « شخص غير مرغوب فيه » !

والسيد « بانيكار » رجل قصير ممتلئ الجسم ، تبرق عيناه إعجاباً بملاحظاته . وهو محدث بارع سريع الخاطر . ولما كان قد قضى مدة فى خدمة مهراجات الهند ، فقد أكسبه ذلك صفة التزلف وإرضاء ذوى السلطة مهما كان لونهم . وقد قال عنه « نهرو » ذات يوم : إنه سيكون شيوعياً فى بكين ، ونصيراً للحرية فى واشنطن ، ما دام فى ذلك مصلحة له . وكان

ناقماً عليّ لأنى عارضت حزب المؤتمر الهندى فى أثناء الانتخابات ، وتجرأت على مخالفة آرائه بشأن الصين . وهكذا قضيت أسبوعاً كاملا بدون طعام ولا مال ولا إذن يبيح لى التجول فى المدينة ، مما اضطرنى إلى التماس وساطة وزارة الخارجية فى الحصول على أوراق اعتمادى . وكنت طيلة تلك المدة أجهل أسباب تلك المصاعب . وعلمت فيما بعد أنه شكا من آرائى عن الصين ، وأنكر وصول أية تعليمات من الوزارة بشأنى ، بل أبلغها حادث التصوير فى كانتون .

وأخيراً تسلمت أوراقى ، ولكنى أرغمت على الخضوع لنوع آخر من الرقابة . فقد قيل لى إن السفارة تعهدت لسلطات الصين بألا أبعث بتقارير مجحفة بحق الصين ، ولذلك يجب أن تخضع تقاريرى لرقابة السفارة قبل إرسالها . أضف إلى ذلك أنه قيل لى إنه لا يجوز لى الكتابة إلا عن حركات الوفد الهندى ، وأنه ينبغى عليّ ألا أشترك فى توجيه الأسئلة عند زيارة مختلف المعاهد والمؤسسات . وعلمت فيما بعد أن تلك الشروط لم تضعها سلطات الصين. ومن ثم قررت عندما غادرت بكين أن أتصرف كما يحلو لى، كما قررت ألا أصغى إلى البيانات الرسمية المملة ثانية ، وأن افتح عينى لأرى ما طرأ من تغير فى الفترة التى تلت زيارتى الأولى للصين . وكنت قد تعلمت من زيارتى الأولى أن التجول فى الصين مسير لا مخير ، وأن جميع الاتصالات والمحادثات يجب أن تجرى تحت سمع المترجمين وبصرهم ،

وبواسطتهم ، لأن الصينيين يرفضون التكلم بالإنجليزية حتى ولو كانوا يتقنون تلك اللغة . وكان أساتذة الجامعات وغيرهم ممن تخرجوا فى بريطانيا أو أمريكا يتظاهرون بأنهم يجهلون الإنجليزية ، ومن ثم كانوا لا يجيبون إلا بعد ترجمة الأسئلة إلى الصينية . فالسيدة « صون يات — سن » التى درست فى الولايات المتحدة مثلاً ، رفضت التكلم بالإنجليزية فى بادئ الأمر ، مدعية أنها نسيت تلك اللغة ، واضطرت السيدة بانديت رئيسة الوفد إلى مخاطبتها بواسطة مترجم . وما دمت بصدد الحديث عنها ، لا يفوتنى أن أذكر أنها تأبى أن ترتدى لباس شيوعيى الصين الأزرق ، وأننى لم أرها خلال الزيارتين إلا فى ثياب سود أنيقة ، وقد عقصت شعرها فى ذؤابة فى مؤخرة رأسها . وكان الأسى بادياً فى عينيها ، ولعل حماسها للشيوعية أخذ يخبو . ومع أن الحديث بيننا بدأ عن طريق المترجم ، فإنها ما لبثت أن انساقت إلى التكلم باللغة الإنجليزية .

وكذلك كانت السيدة « كونج بن » مديرة الاستعلامات فى وزارة الخارجية الصينية تتقن الإنجليزية . فقد ظلت أكثر من عشر دقائق تستجوبنى فى المؤتمر الصحافى الذى عقد فى معرض الحرب الجرثومية ، ولكنها مع ذلك رفضت أن تخاطب بالإنجليزية اثنين من أعضاء الوفد عندما زاراها فى وزارة الخارجية وقد علل أحد الزملاء الرغبة عن استعمال الإنجليزية بأنها من قبيل الاعتزاز بالقومية . ولكنى لا أرى غضاضة فى مجاملة الزوار

بمخاطبتهم بلغة يفهمونها . والحقيقة أن السياسة الشيوعية فى أى مكان تقضى بالرقابة الشديدة على كل ما يقدم من معلومات وإحصاءات ، بحيث تتكرر نفس البيانات والمعلومات بصورة مملة إلى أن يضطر السامع أخيراً إلى تقبلها كحقائق راهنة ، فيعود السائح المخلص من الصين ليرويها ، وهو يتوهم أنها مشاهداته الخاصة .

ولئن كان الدعاة الشيوعيون يزعمون أن السائح فى الصين غير مقيد ولا مسير إلا ببرنامج يعد لزياراته ، وأنه حر فى مراعاته أو عدمها ، فإن الحقيقة هى أنه لا يمكن زيارة أى مكان فى الصين إلا بناء على ترتيبات سابقة . فمن المستحيل على الزائر أن يذهب حيث يشاء ، ولو أنه يستطيع أن يمتنع عن الذهاب إلى حيث يريد البرنامج المقرر . وليست اللغة هى الصعوبة الوحيدة التى تحول دون ذلك . فقد قرر أحد الأعضاء يوماً ألا يرافق الوفد ، بقصد زيارة أحد الأساتذة الأجانب فى جامعة بكين ، وكان يحمل كتاباً للتعارف . وذهب المترجم مع أعضاء الوفد الآخرين ، ودار صاحبنا وهو يحمل بيده عنوان الأستاذ من شارع إلى آخر ، فلم يدله أحد . وإذا برجل يتكلم الإنجليزية يذكره بأن من المستحيل أن يزور الأستاذ أو الجامعة دون ترتيب سابق . وعاد إلى الفندق يجر أذيال الخيبة ، وقيل له هناك إنه ما كان له أن يزور الجامعة دون أن يصحبه مترجم لأن الجامعة تدخل فى نطاق « الأماكن المحظورة » .

صحيح أنهم كانوا يسألون الضيف عما يفضل من الزيارات ، فيأخذونه إليها بعد إعداد الترتيبات اللازمة إذا أمكن ، وإلا قيل له إن ذلك المكان لا وجود له . وأذكر فى هذا الصدد أننى رأيت فى زيارتى الأولى معرضاً أقامته جامعة نانكين ، وكان بين المعروضات براءة تسمح لبعثة أمريكية بإنشاء تلك الجامعة ، وذلك للتدليل على أن الاستعمارية الأمريكية كانت تبيت الحط من قدرة الثقافة الصينية . وعرضت كتب مدرسة إنجليزية فى السياسة والاقتصاد ، وقد وضعت علامات بالقلم الأحمر على بعض الفقرات فيها لإقناع الزائر بوجود خطة مبيتة لإفساد وطنية الطلاب . وكانت أمريكا قد أنفقت على تلك الجامعة ملايين الدولارات ، فاقترحت على الوفد فى زيارتى الثانية أن يطلب زيارة الجامعة بحجة وجود بعض رجال التربية بين أعضاء الوفد . ولكن قيل للوفد إنه لا يوجد فى نانكين مثل هذه الجامعة ! ! . ولعل ذلك كان من قبيل السهو والنسيان . ولكنهم بعد أن أعدوا الترتيبات اللازمة ، عادوا فسمحوا بزيارة عضو واحد .

والأمثلة على مثل هذا التصرف كثيرة . وأنا أعلم أنى قد أتهم بإثبات ما ينكره غيرى . ولعل هذا الغير يستنكف عن مس إحساس مضيفنا . غير أنى أشعر بأن لشعبنا علينا حقاً فى معرفة الحقيقة ، لا سيما ما دامت اعترافاتنا بالجميل تستغل لتقويض حريتنا وديمقراطيتنا فى الهند ، وللبرهنة على أن التقدم لا يتم إلا عن سبيل الشيوعية . ولعل إدراك الحقيقة الواقعية

أسهل فى الصين منه فى بلد آخر ، لأنها لم تتقن أفانين الشيوعية بعد ، ولأن معظم الشعب مشغول بتحصيل قوته اليومى. ومع أن قوانين بكين نافذة فى جميع أطراف البلاد ، فإنها لا تزال بحاجة إلى توحيد إدارى يشدد القبضة الديكتاتورية على الشعب . ومن ثم كنت أكرر الأسئلة رغم امتعاض المترجمين والمرافقين ، وأتلمس رد الفعل فى الإجابة عليها ، فابتززت بعض المعلومات مما هو مكبوت فى الصدور ، من مثل قول أحدهم : « انتزع الروس جميع الآلات من منشوريا ولم يعيدوا إلا القليل منها » . وقول آخر : « إن أهل كوريا الشمالية قد تسرعوا » . ولقد أفدت من تكرار زيارتى بعد فترة وجيزة ، إذ استطعت أن أقيس مبلغ التقدم الذى طرأ على الصين خلال الفترة الواقعة بين الزيارتين وأدركت من اختباراتى السابقة أن الدافع الأول للشعوب الجائعة المضطهدة هو الحرية — الحرية القومية والفردية ، والحق فى أن تعيش كمخلوقات بشرية لا ينقصها الغذاء والملبس والمأوى . ورأيت هذه الحوافز تدفع بشعوب آسيا وأفريقيا إلى أحضان الشيوعية .

إنى أحترم الشعب الصينى ، وأشعر بأن كفاحه فى سبيل الحرية والسلام هو جزء من كفاحنا المشترك ، وأن الصداقة بيننا أجدى علينا فى تحقيق آمالنا . بيد أنى مقتنع أيضاً بأن الحكم الديكتاتورى خطر على السلام والتقدم . وما كان لنا أن نتدخل فى شؤون الصين لو اكتفى

شعبها بالحكم الشيوعى لنفسه ، وتركنا نعيش إلى جانبه فى ود وتعاون . وإنما أنا أكتب عما رأيته فى الصين ، لأن الشيوعية الدولية تعمل على تقويض حرية بلدان آسيا بتقديم صور زائفة للصين ؛ وبذلك تثير الشعوب بعضها ضد بعض . ولقد رأيت فى أثناء الانتخابات الهندية مدى تأثير الادعاءات الصينية على الناخب الهندى . فقد كان الكثيرون من رفاقى فى الرحلة الأولى من الضالعين مع الشيوعية ، وصمت معظم أعضاء الوفد فى الرحلة الثانية حفاظاً على الصداقة التقليدية بين البلدين . وهكذا تنتشر مزاعم التقدم بين سكان آسيا الذين لا يدرون أنهم يقادون باسم الحرية والسلام والتقدم إلى اعتناق مبادئ الديكتاتورية الطاغية التى ستنكر عليهم ما يصبون إليه بالذات .

وإنى لأعترف بأنى لم ألمس إلا أهداب بلاد شاسعة ، ولم أشاهد إلا ما اختار الصينيون أن يعرضوه للعيان . ولكن القليل الذى رأيته سينفع العاملين المخلصين الذين يربأون بأنفسهم عن المساهمة فى تقويض حريتنا القومية . ولقد تعلمت من غاندى قيمة الأساليب المشروعة ، ولكنى أرى من السخف أن تطلب من شعب جائع الانتظار حتى يجد الأساليب المشروعة لسد حاجاته . إلا أنى اقتنعت مما رأيته فى الصين أن الأساليب الشريرة إنما تؤدى إلى نجاح مؤقت ، ذلك أنها أساليب تنطوى على بذور الدمار للغايات التى تحاول تحقيقها .

ذهبت إلى الصين إذن لأرى ما إذا كان الشعب الصيني قد فاز بالحرية والديمقراطية تحت ديمقراطية ماو تسي – تونج الديكتاتورية ، فوجدت حكومة تشن حرباً طبقية لا هوادة فيها ولا رحمة . ذهبت إلى الصين لأرى كيف يمكن التقدم في ظل الشيوعية ، وأنا أعلم أنها مذهب يدعي العصمة ويعتبر التساؤل هرطقة ومروقاً . ولما كان الإيمان لا تغذيه إلا المعجزات فإن الشيوعيين الصينيين يزعمون أنهم أتوا معجزات عديدة في الاقتصاد والثقافة والعلم . بيد أن التقدم مستحيل ما لم تتمتع عقول البشر بحرية السؤال جرأة على النقاش والشك . ولقد وجدت ركوداً صناعياً بسبب قلة الدراية الفنية . رأيت الفلاحين راضين عن نظام إصلاح الأراضي ولكن السلطات أخذت تستغلهم لتحقيق أهداف الديكتاتورية الشيوعية .

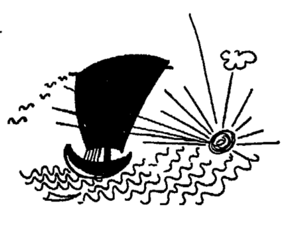
وإليك ما جاء في حكمة صينية قديمة ، لما فيه من عبرة :

قال هوى تسو لشوانج تسو هل يمكن للإنسان أن يتجرد عن الشهوات ؟ فأجاب شوانج تسو : نعم . قال هوى تسو : لا يكون الإنسان إنساناً إذا تجرد عن الشهوات . قال شوانج تسو : إن تاو أعطاه المادة ، والسماء أعطته الشكل ، فكيف يمكن ألا يسمى إنساناً ؟ قال هوى تسو : ولو سلمنا بأنه إنسان ، فكيف يتسنى له أن يتجرد عن شهواته ؟ قال شوانج تسو : إنك لا تفهم ما أعني . عند ما أقول بالتجرد عن الشهوة أعني أن الإنسان لا يدع المحبة والبغضاء تتلفان نفسه ، وإنه يساير الأمور في مجراها الطبيعي ولا يستغل الحياة . قال هوى تسو : إن كان لا يستغل الحياة فما الفائدة من أن له جسداً .

لقد رأيت شعباً عظيماً يبعثه أمل جديد ، ولكن لفترة وجيزة . لقد عادت رياح الظلمات الهوجاء تعصف به وتسحق إنسانيته ودماثته وحبه للمعرفة . لقد أصبحت أربعمائة مليون نسمة مجرد أجسام آلية فى خدمة الدكتاتورية ، لأنهم باعوا إنسانيتهم بحقهم فى الطعام .

الفصل الثانى

بكين



يرتاح المسافر فى الصين إذا كان ضيفاً على الحكومة لأنها تضع تحت تصرفه طائرة عسكرية ، إذ لا توجد فى البلاد شركات جوية مدنية . ولكن السكك الحديدية نظيفة ومحافظة على مواعيدها ، وللضيوف مركبات خاصة ، ولا ازدحام فى المحطات كما هو الحال فى البلدان الديمقراطية ، لأن المسافرين القلائل مجبرون على حفظ الهدوء والنظام . ولقد دخلت الصين فى زيارتى الأولى من هونج كونج إلى كانتون ، واضطررنا إلى المشى مسافة غير يسيرة عند حاجز الحدود الجمركى ، فلفتت نظرى شدة الحراسة على الحدود ، ودقة التفتيش قبل اجتيازها ، إذ كان يقوم بالتفتيش داخل القطارات جنود مسلحون ببنادق رشاشة ، كما كانت تلقى خطب الدعاية وتباع مطبوعاتها .

وكان فى استقبالنا فى محطة كانتون صفوف من الأطفال ذكوراً

وإناثاً ، يحملون باقات من الأزهار . ووقف خلفهم ممثلو المؤسسات العامة . وبعد أن صافحناهم أركبونا سيارات أسرعت إلى دار الضيافة ، حيث قدموا لنا الشاى والفواكه ريثما تخصص لنا الغرف . وأقاموا لنا فى المساء مأدبة أخرى جرى فيها تبادل الخطب والأنخاب المعتادة . وذكرنى الحادث التالى بأنى فى بلاد أنهكتها الحرب . فبينما أنا أتهيأ للنزول إلى المأدبة انطلقت صفارات الإنذار من الغارات الجوية ، فكفن المدينة ظلام دامس . لم أدر سبب ذلك الإنذار ، ولما سألت لم أفز بجواب واضح ، بل قيل لى إن فورموزا ليست بعيدة ، وأن أعوان شيانج كاى شك ينشطون فى الجنوب. وكان مثل هذا الإنذار يقع كل يوم تقريباً .

إن مدينة كانتون أشبه بسوق واحدة كبيرة ، فكل شوارعها غاصة بالمخازن . ومع ذلك رأينا أكثر المشترين فى مخازن الحكومة . أما الشوارع فبشعة غير منسقة ، ولا زينة على المخازن سوى الأحرف الصينية الضخمة على اللافتات. ولم يكن فى الشوارع سوى بعض العربات ، والمركبات البالية القديمة التى يجرها الرجال . ورأيت آلاف العائلات تسكن المراكب الراسية فى النهر والترع . وبدا لى أنهم أخذوا يفقدون ابتساماتهم الوادعة وطمأنينتهم الساذجة . ورأيت فى قلب المدينة أنقاض بناية قديمة ذات عمد وأروقة ، فذكرتنى بما قاسته البلاد فى كفاحها ضد اليابان . ووقفت على الجسر ثلة من جيش التحرير لحراسته . ومر حمال يحمل متاعاً ثقيلاً

على رأسه . فاعترضه أحدهم وسأله عن بطاقته فأنزل الحمل الثقيل عن رأسه وبحث فى جيوبه ، مخرجا بطاقة « تحقيق شخصية » حمراء . تلك هى الصين الجديدة .

واستغرقت رحلتنا جواً من كانتون إلى بكين ثمانى ساعات . وكانت المطارات فى حالة يرثى لها ، ولا مكان فيها للجلوس فى انتظار الطائرة . ولكن ما كان أبدع منظر نهر يانجتسى من الجو ! كانت المياه قد فاضت على ضفتيه ، فاكتست السهول بالمزروعات . وذكرنى ذلك بجلد الفلاح الصينى ، وما بذله من الجهود فى فلاحة الأرض منذ أقدم العصور . قيل لى مرة إن الفلاح الصينى يعتبر نفسه الوسيط بين السماء والأرض ، فهو يعمل ويكد ولا يبالى بالفيضانات والمجاعات بل يعتبرها قدراً محتوماً .

ووصلنا بكين مدينة الأباطرة ، ذات السور القديم والسطوح ذات الآجر الأصفر والقصور الباذخة وساحة « بوابة السلام السماوى » التى تتوسط المدينة وكأنها ساحة موسكو الحمراء ، لأنها تهيمن على الصين الجديدة . ومن شرفة بوابتها العالية أعلن ماو تسى تونج قبل عامين « أن حكومة الشعب الصينى تتولى اليوم السلطة فى بكين » . وفى هذه الساحة بعد عامين اثنين ، أى فى أول أكتوبر ١٩٥١ ، شاهدت قوة الشعب ممثلة فى جيش التحرير وهو يمر بمعدات أمريكية غنمها من جنود الكومنتانج ، ودام الاستعراض ست ساعات ، مصحوباً بكل ما تصطنعه

موسكو من مظاهر ، كالأعلام والرسوم الكبيرة والأزهار والراقصين .

قال ادجار سنو فى وصف بكين إنها مدينة أعدت لأحداث جسام ، وجاء فى كتابه « معركة آسيا » : إنها شذوذ معدودة أيامه ، من مخلفات العصور الوسطى ، حيث عاش مليون شخص بين ألوان الغنائم من تراث الأجيال . كانت مدينة المتقاعدين من أهل البلاد وجنود الدولة ، والعلماء والإقطاعيين ، والرهبان والتجار ، ورجال مثقفين يجرون العربات . كانت مدينة الفن وكرم المحتد والانحطاط ، والدسائس الدبلوماسية على الموائد الشهية ، والمفاسد الهينة الجذابة . كانت مدينة الربيع الدافئ ، والخريف الظليل ، والشتاء البهيج الذى تطل شمسه على البحيرات المتجمدة والأشجار المكسوة بالثلوج . كانت مدينة الرضى الدائم والضحكة المرحة ، والفقر والمآسى واعتياد القذارة — وكانت رغم ذلك موطن العنف غير المتوقع ، حيث سلك الطلاب المتجددون هتافات معارك الأمة ، ومرت جحافل المغول القادمة من صحراء غوبى فاكتسحتها وخلفت على سطوح القصور والهياكل أقدم غبار الحياة .

* * *

لقد غشى بكين اليوم ما غشيها ، فقد أزيل الغبار عنها ، ولئن ظلت القصور والهياكل على جمالها ، فقد بارحتها الضحكة المرحة ، واضمحل الفن وانقضى عهد الحياة الهانئة ، وكسا التجهم وجوه أهلها وهم يعيشون

على وتيرة واحدة ويرتدون الثياب القطنية الزرق الموحدة . وغاب العالم المثقف وحل محله الفلاح الذى يردد الهتافات المقررة له . وبنيت مدن جديدة محرمة داخل الأسوار القديمة ، ولم يبق سوى الرجال الذين يجرون عربات الركوب ، جالسين كسالى يدخنون فى انتظار الزبائن .

وأصبحت بكين نظيفة جادة مهذبة ، يخضع شبانها لعملية صارمة من التلقين والتوجيه . واختفت المطاعم الشهيرة . ولمست معالم الجوع والحرمان وشظف العيش فى تفاهة الطعام الذى قدم لنا فى مأدبة الاحتفال بعيد الجمهورية . وكانت أروقة القصر الصيفى والقصر الشتوى تعج بالفلاحين الذين قدموا إلى بكين للاشتراك فى مهرجانات العيد . ولم يسمع حفيف الحرير والدمقس .

وعدت متأخراً ذات ليلة ، فركبت عربة خيل . وانطلق السائق يتحدث بإنجليزية ركيكة ، فيشير إلى أحد المبانى ويصف الأجانب الذين أقاموا فى عهد الإمبراطورية ، ويضيف متأسفاً أن إحدى الدوائر الحكومية تحتله الآن . ولما وصلت ناولته ورقة من فئة عشرين ألف يوان ، إذ لم أجد أصغر منها ، فقال : وماذا عساك أن تستفيد من رد بقيتها إليك ؟ فتركته وانصرفت !

إن بكين هى الصين برمتها ، فهى مقر من بيدهم تقرير مصيرها . ولكنها كانت بالنسبة إلىّ مجرد سلسلة من المآدب التافهة التى تتكرر

فيها نفس الخطب والأنخاب المملة — الصداقة وحسن النية ، وتخوم مشتركة بين البلدين طولها ألفا ميل ، وألفا عام من تبادل الثقافة ، والسلام العالمى والاتحاد الآسيوى — كلها رُدّدت مراراً وتكراراً ، ونحن نشرب الأنخاب من الخمور اللاذعة ، ونحادثمضيفينا الأفاضل بواسطة المترجمين . وكان من المستحيل أن تجد من تحدثه حديثاً جدياً على انفراد . ولقد غامر أحدنا بسؤال تشو ان — لاى عن إصلاح الأراضى ، فأوعز إليه بأن يزور القرى أولا ثم يعود ليتحدث مع الزعيم . ولم تتح له زيارة القرى طبعاً ، ووقف الأمر عند هذا الحد .

* * *

مكثت فى بكين أسبوعين فى كل من الزيارتين ، وحضرت الأوبرا الصينية وسمعت الموسيقى الجديدة المؤلفة على نمط الأناشيد الثورية الروسية ، ورأيت الرقص الشعبى لمختلف الأقليات . وشهدت تمثيل ماى لان — فانج ، وهو أعظم ممثل عندهم ، ويتقن تمثيل دور المرأة أيما إتقان ! ! . وعندها فقط سمعت حفيف الألبسة الحريرية ، فإن مجالى البذخ والترف لا توجد إلا على المسرح . . .

وزرت بعض الجامعات ، وأصغيت إلى أحاديث عن التضخم وإصلاح الأراضى . . . وقضيت يوماً بين القرويين... واتصلت ببعض السفارات ، ولكن كان أهم ما وقع فى نفسى ، تلك الساعات التى قضيتها

فى مرسم « تشى باى — شى » . فقد كان بيته هو الوحيد الذى دخله أحد من أعضاء الوفد الهندى . صحيح أنى زرت بيت السيدة « صون يات، سن » وغيرها ولكنها كانت زيارات رسمية . ولما كانت الصحف الصينية لا تذكر شيئاً عن حياة الشعب ، فقد كنا نشعر بالعزلة التامة ونحن فى قلب بكين . ولعل الشيوعيين يفرضون هذه العزلة فرضاً على الزائرين إدراكاً منهم أن العقل البشرى لا يطيق العزلة طويلا ، وأن لابد له فى النهاية من التراخى وتقبل أى شىء يقع فى متناوله .

وكان برنامج إقامتى فى بكين عام ١٩٥١ قد قرر من قبل . . وكان عبارة عن زيارات يومية إلى أماكن مختلفة ، حيث يلاقينا مديرها المسؤول ، فنتصافح ثم يقودنا إلى غرفة أعدت فيها مائدة الشاى والفواكه التقليدية . ثم يخطب فينا عن مؤسسته ، ويتحفنا بإحصاءات عن نسبة التقدم المئوية بين ما قبل التحرير وما بعده ! وكانوا يسمحون لنا أحياناً بتوجيه الأسئلة ، أو يقولون إن فى وسعنا توجيهها بعد زيارة المؤسسة ، ثم نعود إلى الشاى والفواكه بعد الزيارة . وقلما التقينا بالطلاب ونحن نزور الجامعات ، بل كانوا يأخذوننا إلى المكتبة ، أو إلى معرض أعد خصيصاً لنا.

وزرنا بعض المنظمات الشعبية ، حيث لم يسمح بالمناقشة ، إنما فقط بسماع المحاضرات وإلقاء بعض الأسئلة . ومع أنهم لم يتركوا لنا ساعة فراغ ، فقد تمكنت من زيارة بعض الأجانب المقيمين فى الصين . وكنت

أتطلع إلى تلك الزيارات لأنها الفرصة الوحيدة التى استطعت فيها الاطلاع على حقيقة ما كان يحدث فى الصين . اجتمعت بالمستر لام القائم بأعمال المفوضية البريطانية ، وبالسيد رزونكو المفوض السويسرى والسيد مهدى القائم بأعمال المفوضية الأندونيسية ، وغيرهم . حقيقة تكلموا كدبلوماسيين ، ولكننى مع ذلك استطعت أن أطلع منهم على حقيقة الصين الجديدة . وقد أفدت منهم كثيراً فى زيارتى الثانية ، إذ كنت فيها أكثر حرية وأقل تقيداً بالمراسم ، فشعرت بالتحرر من عبودية التكرار الممل .

وما دمت بصدد الحديث عن بكين ، لا يفوتنى أن أذكر ما وقع لى فى اليوم التالى لوصولى إلى بكين. فى ذلك اليوم قدموا لى ظرفاً يحوى مليونى بوان (نحو ٣٠ جنيهاً) ، فأجفلت وسألت أحد الزملاء عن معنى ذلك ، فقال إن الديمقراطيات الشعبية تتوقع أن يكون زوارها من البلدان الرأسمالية فقراء ! فتقدم لهم مالاً ليشتروا به هدايا يحملونها إلى بلدانهم ! ! وأن رفضها يعتبر إهانة. أما أنا فقد كنت أرى أن الإهانة هى لنا فى قبولها ، فاستشرت أحد موظفى السفارة فوافق على ردها ، ففعلت .

ولما عدت إلى الصين فى شهر مايو كنت حراً طليقاً من أى برنامج ، فما إن تسلمت أوراق اعتمادى حتى خرجت مع أعضاء الوفد لتفقد ما زرته فى المرة الأولى . وكان السيد رزونكو طلى الحديث ، يصف نفسه بأنه سليل كازانوفا من أحد أبويه ، وسليل أحد الباباوات من الطرف الآخر .

ومهمته فى الصين عسيرة ومعقدة ، إذ عهد إليه الأشراف على الإرساليات الكاثوليكية التى عانت كثيراً من المصاعب مؤخراً . أما وزير بريطانيا المفوض ، ومساعده المستر جيليت ، فإنهما ضليعان فى مشاكل الصين رغم انعزالهما الجبرى عن الشعب .

* * *

إن بكين هادئة عابسة كئيبة ، ولكنها تضم أهم رجال الصين ، الذين يحاولون تغيير مصير آسيا . وإن كلمة منهم قد تلقى ضوءاً على ذلك السيف المجهول المصلت فوق رؤوسنا . إننا لا نستطيع أن نعرفهم جيداً ، ولكن لا يسعنا أن نتجاهلهم إلا إذا جازفنا بكياننا .

الفصل الثالث

ماوتسى – تونج



فى أثناء إقامتى فى بكين سمعت الأسطورة التى أخذت تحاك حول اسم «ماو تسى – تونج» ليجعلوا منه الكوكب المنقذ ، والأب ، والحكيم الذى قاد الشيوعية إلى النجاح ، إلخ . . ! ! وصار « ماوتسى تونج » محور دين جديد لا يرقى إليه الشك ولا يتناوله التهجم . ولئن كان قد تحدث مرة إلى الصحافيين وأنس بلقائهم ، واختلط بالعمال والفلاحين وأدرك مشاعرهم واستقبل مئات الناس فى بيته المتواضع فى ينان ، ورد بنفسه على آلاف الرسائل ، فإنه اليوم بعد أن بسط ملكوته لا يقابل أحداً ولا يدرى أحد أين يقيم ، أفى المدينة المحرمة أم فى هيكل على التلال الغربية . لم يعد يختلط بالشعب ، وليس لديه وقت لمقابلة العمال والفلاحين ولا للرد على رسائلهم . وقلما يحضر الحفلات العامة ، ما عدا حفلتى أول مايو وأول أكتوبر . وعندها يعلن حضوره قبل بضع دقائق من ظهوره . لقد

أصبح لغزاً غامضاً وإلهاً جديداً ! !

أما صورته وهو يبتسم رافع الرأس ، فترى فى كل مكان — فى المنازل والمكاتب والشوارع ومحطات السكك الحديدية . كان قد قال من قبل : « الشعب يجب أن يحكم ، ولا حكم غير حكم الشعب » . أما الآن فلم يعد للشعب من وجود ، ولم يبق إلا الزعيم . . . لقد أعلن تعاليمه فى كتابه « آراء ماو » ، التى لا تعدو أن تكون تكراراً لتعاليم ماركس وإنجلز ولينين. فأنّى لى أنا المخلوق الفانى أن أمثل بين يديه فى مقابلة خاصة ؟ يكفينى أنى رأيته مرتين . رأيته فى ٣٠ سبتمبر ١٩٥١ إذ نهض فى المأدبة الرسمية ليشرب نخب الصين الجديدة وليرحب بالوفد الهندى . قال روبرت باين فى وصفه إنه ضخم الجثة عريض المنكبين ، له رأس أسد بجبين منحدر وعينين واسعتين . وبدا لى فى تلك المأدبة أنه أضخم مما يبدو فى رسمه ، وكأنه والد حنون يرحب بأبنائه ! !

ولما انتهت الأنخاب الرسمية ، طاف بالموائد يهز أيدى المدعويين للمرة الثانية بيده الصغيرة الثمينة . وكانت القاعة غاصة بألف وسبعمائة من أبطال العمال والفلاحين ، الذين اغتبطوا برؤية مخلصهم يختلط بهم فى لحظة عابرة ، وفيما هو يتجول بينهم أخذوا ينشدون :

طلعت الشمس حمراء من الشرق
لقد أنجبت الصين ماو تسى — تونج

إنه يعمل لخير الشعب
مرحى ! يا مخلص الشعب العظيم
عاش ماو تسى – تونج عشرة آلاف عام

ورأيته فى اليوم التالى واقفاً على المنصة فى ساحة الاستعراض ، يتقبل التحية ، وقد حف به أعضاء المكتب السياسى ، من بينهم تشو ان – لاى بحاجبيه الكثين ، وليو شاو – تشى مفكر الحزب ، الذى كانت مهمته الشاقة ترجمة « الماوية » إلى « الستالينية » وبالعكس . وكانت أيضاً السيدة صون يات – سن تحتل مكانها بين الزعماء . وكان « تشوته » يقود جحافل الاستعراض العسكرى فى سيارة جيب . وظل « ماو » واقفاً من العاشرة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر ، رافعاً يده بالتحية ، وقد بدا أشبه برئيس كهنة يبارك المتعبدين ، بينما كانت آلاف الأصوات تهتف له فى الساحة . وكان حضوره يملأ الساحة الواسعة ، ويقبض على العقول والقلوب بيد كلها عزم وتصميم . كانت كلمته القانون والحكمة والحق مجتمعة ! ! إنه فى الستين من عمره ، وقد أثرت فى صحته حياة الإرهاق التى قضاها فى ينان ، بحيث لم يعد يستطيع الوقوف ست ساعات متوالية ، ولذلك اختصر الاستعراض فى أول مايو إلى ثلاث ساعات.

لما قدم إليه الوفد الهندى هدايا ثمينة باسم الشعب ، لم يكد ينظر إليها ، فامتعض أعضاء الوفد لأن الهدايا لم تلفت نظره بحيث تستحق منه

كلمة تقدير أو إعجاب . وأقيمت بعد ذلك حفلة رقص فيها أعضاء الوفد رقصة هندية ، فظل وجه الزعيم جامداً لا ينم عن أى رد فعل . وإنى أذكر صورة معلقة فى ردهة فندق موكدن ، بدا فيها الزعيمان « ماو » و « ستالين » بالحجم الكامل وهما يسيران فى رواق الكرملين وخلفهما « مولوتوف » و « تشو ان — لاى » . وقد حرص الفنان الصينى الذى رسمهما على أن يُظهر الزعيمين الصينيين أطول من صنويهما السوفياتيين . وابتسمت ، إذ تذكرت أننى رأيت صورة روسية مماثلة بدا فيها الروسيان أطول من الصينيين ، فيا لها من منافسة ! !

لا أظن أنه كانت هناك مودة بين « ستالين » و « ماو » ، فقد تجاهلت روسيا الزعيم الصينى فى أثناء كفاحه ، ولم تتوقع أن يتغلب شيوعيو الصين على تشيانج كاى — شك بتلك السرعة . ومن ثم وجد « ماو » نفسه منذ عام ١٩٢٧ على خلاف مع « الكومنترن » ، ومع « ستالين » الذى كان يدعو إلى الحد من مصادرة الأراضى والثورات الشعبية فى المدن. إن «ماو» الذى لم يغادر وطنه إلا عندما زار موسكو فى أواخر عام ١٩٤٩ ، كان يستمد قوته من نشأته كفلاح ، فأدرك حب الفلاح للأرض كما أدرك أن الثورة الشيوعية لن تدوم إلا إذا دعمها الفلاح . وقد حلل الثورة الصينية عام ١٩٣٩ فى كتاب جاء فيه :

• بينما نحن نجابه أعداء كهؤلاء ، كانت الأسئلة تدور حول القواعد الثورية الخاصة .

١

كانت الدول الاستعمارية الكبرى وجيوشها الرجعية فى الصين تحتل دائماً مدناً صينية كبرى . فإذا أرادت القوات الثورية أن تلم شعثها وتعزز قوتها ، فيجب عليها أن تحول المناطق المتأخرة النائية إلى قواعد تقدمية قوية — إلى حصون ثورية عسكرية وسياسية واقتصادية وثقافية . ومن هذه الحصون تندفع القوات الثورية لتطرد الأعداء المتمركزين فى المدن والذين يسطون على القرى . وبناء على عدم التوازن فى التطور الاقتصادى الصينى ، وعلى سعة الأراضى الصينية ، وعلى التصدع البادى فى المعسكر المناوئ للثورة ، وعلى أن القوة الرئيسية للثورة (الفلاحين) خاضعة لقيادة الحزب الشيوعى ، فإن من المرجح أن تحرز الثورة أعظم نجاح فى الأرياف . وهكذا تندفع الثورة إلى نهايتها فى جو يفتقر إلى التوازن ، مما يزيد من مصاعبنا ويمد فى أجل الثورة » .

وكان هذا بدعة جديدة فى نظرية الثورة ، لم يستسغها الكومنترن ، فترك الصينيون يقررون مصيرهم بأنفسهم . وأدرك شيوعيو الصين صحة تحليل « ماو » ، ولكن عن طريق خمس حملات شعواء شنها تشانج عليهم لإبادتهم . وهكذا أصبحت الصين تمثل الجناح الشرقى من الشيوعية ، بينما تمثل روسيا الجناح الغربى . وصار « ماو » وروسيا حليفين يرتاب كل منهما فى الآخر ، أما « ماو » والصين الشيوعية فقد أصبحا بعد القطيعة بينهما وبين العالم الغربى أكثر اعتماداً على روسيا من أجل المساعدات العسكرية والفنية والاقتصادية . ولعل « ماو » يرى فى صداقة الهند ما يمكن أن يدفع عنه سيادة روسيا .

لم أر « ماو » ثانية ، ولكنى كنت فى بكين عندما جاء وفد الهند الثقافى لمقابلته . دخلت الرئيسة السيدة « بانديت » أولا ، وأدخل الباقون

بعد دقائق . وقيل لى إن أحد الأعضاء تمتم وهو يصافحه معرباً عن سروره بزيارة الصين ، وإن « ماو » رد بقوله : «فلنعمل معاً من أجل السلام ومن أجل البناء » . وتسأل القادة الصينيين عن معنى ذلك ، فيقولون لك إنه قول ينم على ما يسمونه « شعوره الآسيوى » . وأنا لا أفهم لذلك معنى سوى أن « ماو » يعتبر آسيا منطقة نفوذ الصين !. إن موقفه من الهند مؤخراً يدل على التطورات الطارئة على فلسفته . كان يقول سابقاً « النصر الحاسم فى الصين مستحيل بدون مساعدة روسيا السوفياتية » . كما قال فى الجلسة الثالثة للجنة القومية المنبثقة عن مؤتمر الشعب السياسى الاستشارى فقد قال « اعتمدنا فى الحفل الدولى على الاتحاد المتين فى معسكر السلام والديمقراطية الذى يرأسه الاتحاد السوفياتى ، وعلى حسن نية شعوب الأرض» ولكنه بعد ثلاث سنوات من التحالف مع روسيا ، بات يخشى من سيطرتها على منطقة نفوذه ولذلك عممت التعليمات فى أول أكتوبر ١٩٥١ بضرورة خطب ود الشعب الهندى ، ولأول مرة أضيف إلى لائحة الهتافات فى الاستعراض : « ليحى اتحاد الشعوب الآسيوية » واحتفوا بالزوار الهنود كممثلين للشعب الهندى ، وأغفلوا ذكر الحكومة ورئيس وزارتها . فما مغزى ذلك ؟ إن « ماو » رئيس حكومة الشعب المركزية ، ورئيس مجلس الثورة العسكرية الشعبية يتمتع بسلطات واسعة . لقد صيره نجاحه دكتاتوراً ، وجعل إرادته قانوناً . وهو يود أن يعزز سلطانه لا بالخنوع لروسيا بل

بمحالفة الدول الآسيوية التى يعتبرها مناطق نفوذ للصين !

وقد لمست قوة نفوذه وتأثيره على الشعب فى أماكن نائية . فى إحدى القرى الشمالية البعيدة ، هرعت النساء لمصافحتنا لأنهن سمعن بأننا صافحنا « ماو » . ! وتحدث القرويون عن الرسائل التى بعثوا بها إليه يعرضون فيها مشاكلهم ، وعن الردود التى وصلتهم . والأطفال أول ما يبدأون النطق يلقنون النشيد الذى مطلعه : تونج فانج هونج تاى ينج شنج (طلعت الشمس حمراء من الشرق) . وفى شنغهاى خرجت عجوز للقائنا لأن « ماو » قال لها فى بكين يوم الاستعراض « إن الهند أهم جاراتنا ، ويجب أن نتعرف إليها جيداً » كانت العجوز تتشانج ماما ، رئيسة جمعية المقاومة النسائية ، التى ظنها جنود الكومنتانج ميتة فتركوها بين كومة من جثث القتلى ! !

الفصل الرابع

تشو ان ــ لاى



إنى أشد اهتماماً بالناس منى بزيارة الأماكن . ولكن فى الصين لا تقع للناس حوادث تسترعى انتباه الزائر ، فكلهم يعمل على إنجاح الديمقراطية الشعبية ، وكل شيء يسير وفق البرنامج المقرر ؛ بل تنجز الأعمال قبل مواعيدها ، ويتخطى الأبطال الأرقام القياسية كل يوم بمئات « الاختراعات » . والصحف لا تنشر إلا التقارير عن الجو الودى الذى تقام فيه الحفلات والمآدب ، والخطب التى يلقيها الزعماء . حتى مفاوضات الصلح فى كوريا التى كانت جارية آنذاك ، لم تُنشر عنها أخبار ذات أهمية . كان العالم الخارجى مقفلا فى وجه بكين . ولو أننى شئت أن أطلع على ما عرضوه علىّ فقط ، لما كان لزاماً علىّ أن أسافر إلى الصين ، ولكفانى أن أقرأ التقارير وأن أشاهد الصور والرسوم .

ولكننى سافرت إلى الصين لأسمع وأرى بشراً لا آلات . وإذ وجدت نفسى فى بكين التى تعج برجال غيروا مجرى التاريخ ، وليس فى وسعى أن أطرح عليهم سؤالا ! شعرت بالخيبة ، وألححت على مترجمة الوفد مراراً أن تعدّ لى مقابلة مع « ماو تسى — تونج » و « تشو ان — لاى » وغيرهما ، فكان جوابها دائماً : « لقد بعثنا بطلبك » . وأخيراً طلبتُ مقابلة الموظف المسؤول عن جميع الوفود الزائرة ، وأوضحتُ له أن طلبى معقول مألوف ، وأكدتُ له أن الصحافة الهندية يسرها أن تذيع ما يقوله زعماء الصين . ولعله تأثر بحماسى ، فطلب أن أقدم أسئلتى كتابة ، ووعد برفعها إلى وزارة الخارجية . وأوشكت زيارتنا لبكين أن تنتهى قبل أن أظفر بجواب . ولا حظت السيدة « ليو » المترجمة امتعاضى ، فزارتنى ذات يوم وقالت إن الصين الجديدة لا تؤمن بالمؤتمرات الصحافية ! وأضافت أنها تأمل فى أن أتمكن من مقابلة رئيس الوزارة « تشو ان — لا » فى إحدى الحفلات ؛ فأفهمتها أن لا جدوى فى تلك المقابلات العامة ؛ ولكن احتجاجى ذهب هباء منثوراً .

وقبل أن نغادر المدينة بيومين ، دعانا مستشار الشؤون الهندية إلى مأدبة غير رسمية فى منزله . وأوعز إلينا بعد ظهر ذلك اليوم بمغادرة المأدبة فى الساعة التاسعة ، لحضور حفلة الاستقبال التى ستقيمها وزارة الخارجية تكريماً لكافة الوفود الموجودة فى بكين . فحملت معى نسخة من الأسئلة

التى أرسلتها بأمل أن تسنح لى فرصة مقابلة رئيس الوزارة هناك . ودخلنا القاعة ، فإذا هى حافلة بمختلف الوفود ، ومن بينها وفود روسيا وأوربا الشرقية وأندونيسيا وبورما والباكستان . وبعد المراسم والخطب التقليدية ، دخلت السيدة « ليو » فى صحبة رئيس الوزارة وقدمتنا إليه . ثم طُلب منا أن نتوجه إلى قاعة المأدبة وأن نجلس حيثما شئنا . وفيما أنا أمر برأس المائدة رأيت الأسئلة التى كتبتها بيدى موضوعة على المائدة أمام مقعد رئيس الوزارة . وخشيت ألا يتسع المجال لأسئلتى العديدة فى حضرة مئتى مدعو ، بيد أنى عولت على انتهاز الفرصة مهما كلف الأمر .

ونهض «تشو ان — لاى» ليلقى خطابه، فرحب بنا ورجا أن نكون قد رأينا كل ما نرغب فيه ، واعتذر عن بعض التقصير بحجة أن الصين الجديدة لم تتجاوز العامين من عمرها . وأضاف أنه مستعد للإجابة على أية أسئلة توجه إليه . ولقد كان خطابه قصيراً ، لم يستغرق أكثر من خمس دقائق ، وتُرجم إلى الإنجليزية والروسية . وصمت برهة ثم التفت إلىّ وهو يتوقع أن أنهض لألقى أسئلتى . وكانت هذه هى أول مرة أراه فيها عن كثب . ولقد وجدته بهى الطلعة كنهرو ، أنيق الملبس ، يأسر القلوب بصوته الرخيم ، وإشاراته المهذبة ، وضحكته الرنانة ، وعينيه البراقتين . وهو خبير بالحياة ، يتقن الفرنسية والألمانية ، وكان طالباً فى فرنسا عندما أسس الحزب الشيوعى مع « لى لى — سان » و « لو مان » . ويقال إن

«تشانج كاى ــ شك» كان يعتبره الشيوعى الوحيد الذى يمكن التحدث إليه .

وهو نشيط مرح يصافح بحماسة ، مخلص لعقيدته ، يحب الخطابة ، ويدرك ما لحسن إلقائه ورجاحة أفكاره من أثر بالغ فى سامعيه . ولما رأيته ثانية عام ١٩٥٢ فى حفلة افتتاح المعرض الفنى الهندى ، دهشت من حرصه على مشاهدة أكبر عدد ممكن من اللوحات . وكان يبدى من الملاحظات على الرسوم ما دل على قلة إلمامه بالفن ، وعلى أن ما جذبه إليها كان عناوينها لا براعة الفنانين ! ! وهو لا دخل له فى جهاز الحزب على رغم أنه من أعضاء اللجنة المركزية . ولكنه يحتفظ بمنزلته بواسطة شخصيته المحبوبة . وليس بمستغرب أن تجد فى الشرق أناساً يعتمدون فى نفوذهم على جمال الخلقة وسحر الاعتزاز ، بغض النظر عن استقامتهم وذكائهم ! ! ففى محيط حافل بالبؤس والقبح ، يبعث مثل هؤلاء الأمل فى التطلع إلى الجمال المنشود .

كنت قد أعددت ١٦ سؤالا منسقاً بحيث لا تفوتنى نقطة هامة ، منها ما يتعلق بالحرب الكورية ونجاح مفاوضات الصلح الجارية بشأنها . وخشيت أن أسىء إلى مضيفينا بالسؤال عنها مباشرة ، فقررت التريث لأراقب تطور الموقف . غير أنى نهضت فجأة خشية فوات الفرصة ، وأسرع أحد المترجمين إلى جانبى . وبدأت بالاستئذان بطرح الأسئلة . بحجة أن العالم يتخبط فى بحر من سوء التفاهم . فنحن فى الهند نسمع كثيراً عن السلام بينما العالم يعيش فى حالة من النزاع . فهل له أن يوضح رأى

الصين فى السلام ، وكيف يمكن التعايش بين نظريتين على طرفى نقيض؟
وشزرتنى الأعين من مختلف جهات القاعة ، لأن سؤالى ينطوى على عدم الإيمان
بدعاوى الشيوعيين فى مؤتمرات السلام ومعاهدات السلام . ولقد كنت
وسط خضم من أناس انغمسوا فى الرطانة الشيوعية . ولكن «تشوان — لاى»
ابتسم لى ، مما دل على أنه فهم سؤالى بالإنجليزية ، إلا أنه تريث إلى أن
تُرجم السؤال إلى الصينية والروسية ، ثم أجاب : —

« إنه سؤال وجيه ، فلقد أصبح السلام معضلة رئيسية فى هذه الأيام .
إن الشعب الصينى محب للسلام ، والمبدأ الذى تسير عليه جمهورية الشعب
فى سياستها هو حماية استقلال البلاد وحريتها وسيادتها ، وتأييد السلام
الدولى الدائم والتعـــاون الودى بين مختلف الشعوب ، ومقاومة السياسة
الاستعمارية التى تستهدف العدوان والحرب . ولقد أعلن الرئيس «ماو» للعالم
يوم تأسيس حكومة الشعب المركزية ، إن جمهوريتنا مستعدة لإنشاء
علاقات دبلوماسية مع أية حكومة أجنبية توافق على التمسك بمبدأ المساواة
وتبادل احترام السيادة وسلامة البلاد . ونحن نؤمن بإمكان التعايش السلمى
بين جميع بلدان العالم، اشتراكية كانت أم ديمقراطية، شعبية أم رأسمالية .
ولكن الدول الاستعمارية لا ترغب فى التعايش السلمى ، وتخشى التنافس
السلمى ، وتأبى أن تتخلى عن سياستها العدوانية التوسعية ، مما يضطرنا
إلى مقاومتها . ونحن نعتقد أن السلام العالمى الدائم فى صالح جميع الشعوب ،

فهو إذن قابل للتحقيق ، وأن سياسة المستعمرين يمكن قهرها . أى إنه إذا حاربت شعوب العالم فى سبيل السلام ، فإن السلام الدائم سيتغلب على الحروب العدوانية » .

ومع أنى توقعت مثل هذا الجواب ، فقد كنت أؤمل فى شىء أعمق من رجل صينى عرفت أمته بإتقان فن الحياة والتعايش السلمى ؛ شىء ينطوى على حكمة قديمة من تعاليم كنفوشيوس وبوذا . إنى شخصياً مقتنع بأن السلام لا يسود إلا إذا كان وليد الحرية لا العنف والإكراه ، وأنه يزدهر متى كان معترفاً بحق الإنسان فى حرية العيش كما يشاء . ويجب أن يكون الإنسان مستعداً للتضحية بنفسه ، لا أن يحاول فرض إرادته بالقوة الوحشية . وليس أدل على ذلك من أن الحرية الهندية التى اكتسبت بعد طويل العناء والجهاد ، أدت أخيراً إلى صداقة بين الإنجليز والهنود ، على حين أن الحربين العالميتين فى سبيل الحرية والسلام لم تؤديا حتى الآن إلى السلام المنشود بين الأمم .

ولما كان « تشو ان لاى » قد أغفل فى جوابه كثيراً مما كان يجب أن يقال ، فقد حصرت ذهنى فى صياغة السؤال التالى لأقيده إلى صلب الموضوع . ولكن المترجم انتقل إلى زميل آخر اقترح أن تدعو الصين إلى مؤتمر لتنمية العلاقات الودية بين دول آسيا . فسألت عما إذا كان اتحاد الشعوب الآسيوية يستطيع تعزيز السلام وحمايتها من العدوان وتساءلت : ألا يمكن أن يُفسر

ذلك الاتحاد بأنه يهدف إلى خلق كتلة إقليمية ، فيعتبر إذ ذاك تهديداً للسلام؟

فأجاب «تشو ان لاى» : «نعتقد أنه إذا قامت شعوب الصين والهند وبورما وأندونيسيا والباكستان وغيرها بما فيها اليابان ، بتعزيز اتحادها والدفاع عن السلام ، فإنها تستطيع مقاومة عداون أمريكا أو غيرها من الدول الاستعمارية . ونعتقد أن تعزيز هذا الاتحاد سيساعد على توحيد شعوب العالم بأسره . ولما كان هدفنا من هذا الاتحاد الآسيوى هو السلام ومكافحة العدوان ، فإنه لا يشكل تهديداً للسلام . ولا يقول بهذا التهديد المزعوم سوى الأمريكيين والمستعمرين الآخرين الذين يهددون السلام فى آسيا بإنشاء قواعد عسكرية فيها وإعادة تسليح اليابان ومحاولة التوسع فى حربهم العدوانية » .

إن الاتحاد فى نظر الشيوعيين إنما هو الاتحاد ضد الغرب ، والسلام إنما هو السلام على الطريقة الشيوعية . وهم لا يعترفون بالأمم الجديدة فى آسيا كحكومات حرة ، ولذلك يوجهون النداءات إلى شعوب تلك البلدان .

وجاء دور زميل آخر سمى نفسه خبيراً اقتصادياً . وبدلا من أن يتقدم بسؤال ، ألقى خطاباً عن تعدد الطبقات فى المجتمع الصينى وعن تعدد الأحزاب تحت قيادة الطبقة الكادحة . واختتم بالسؤال عن الوقت الذى يستغرقه تحويل الديمقراطية الشعبية إلى دولة اشتراكية ، وعن البرنامج الاقتصادى الخاص بالمالية والتجارة والموظفين الفنيين. وأنكر « تشو ان

لای» أن الاقتصاد الصينى اقتصاد مختلط وقال « سننتهى فى المستقبل إلى تأميم الصناعة وجعل الزراعة اشتراكية . وسيستغرق هذا وقتاً طويلا . وسيتم بإرادة الشعب الصينى » . فسألته عما إذا كانت الصين ترحب بالمساعدة الأجنبية والخبرة الفنية ، فأجاب « هناك مصاعب فى عملية تصنيع البلاد ، ولكننا واثقون من تذليلها بمقدرتنا » . ثم أضاف « إننا طبعاً نرحب بأية مساعدة من البلدان الصديقة ، ومن شعوب العالم الذين يعطفون على قضيتنا . أما من حيث المعدات والخبرة الفنية ، فلقد تسلمنا مساعدات قيمة من الاتحاد السوفياتى ، وألمانيا الشرقية ، وأوروبا الشرقية ، كما ساعدتنا آسيا الشرقية الجنوبية عن طريق تبادل المواد الخام . وقد تعلمنا إدارة السكك الحديدية مثلا ، من السوفيات » .

أما بشأن مشكلة السكان فقد أدلى « تشو ان لاى » بجواب ماركس المألوف . وكان كومو — جو الكاتب الصينى الذى تحول إلى خبير اقتصادى قد قال عام ١٩٤٩ : « ليست مشكلة الغذاء فى الصين نتيجة تضخم عدد السكان ، بل نتيجة تفاقم استغلال اقتصادى من قبل الرأسمالية الأجنبية بالتواطؤ مع الخونة فى البلاد . وقد تنبه الشعب الصينى ، وعما قريب لن تكون هناك مشكلة غذائية حتى ولو ازداد عدد السكان» . أما «تشو ان لاى » فقد أجاب بما يلى : « بلادنا واسعة وفيها مساحات غير مزروعة وستحتاج مشاريع الرى وما أشبه إلى وفرة من الأيدى العاملة . إذن فليس

ثمة مشكلة سكان» . وفى هذا الجواب إشارة إلى رخص الأيدى العاملة الذى هو الرأسمال الوحيد فى البلدان المتأخرة ، وليس فى هذا مايرفع مستوى معيشة الشعب.

وكان الوقت يمر سراعاً وأنا أخشى توجيه سؤال عن مفاوضات الصلح فى كوريا . فأخذت أحاول الاقتراب من الموضوع قائلا : إن الديمقراطية تعنى حق الفرد فى اختيار ما هو أصلح له ، بينما تعنى الديكتاتورية حق فرد واحد أو حزب واحد فى اختيار ما هو صالح للكثيرين . فكيف يمكن الجمع بين هذين النقيضين فيما تسمونه فى الصين الديكتاتورية الديمقراطية؟ وكنت أعلم ما سيجيب به ، ولكننى قصدت بسؤالى أن أفهمه أنى لاأسلم بما يتحدثون به عن الديمقراطية فى البلدان الشيوعية . وليس لدى نص جوابه حرفياً كما صححه هو ، ولكنى أعتقد أن ما دونته فى مذكراتى لا يعدو الحقيقة . قال : « الديمقراطية والديكتاتورية هما جانبا السلطة السياسية فى الصين . فالفلاحون والعمال وطبقة البرجوازية تحت قيادة الحزب الشيوعى . ولهذه الطبقات حقوق ديمقراطية ، بما فى ذلك حرية القول والنشر والاجتماع والعقيدة ، وهى التى تنتخب الحكومة . وهذاما نعنيه بالديمقراطية الشعبية . والشعب الصينى يصطنع الدكتاتورية على الطبقات التى أسقطت كأصحاب الأملاك ، والرأسماليين وأعضاء حزب الكومنتانج . ولكن أفراد هذه الطبقات قد مُنحوا فرصة إصلاح أنفسهم . وهكذا يجمع نظامنا بين ديمقراطية بين الشعب ودكتاتورية على الآخرين ، ولا تناقض بين الاثنين » .

ولم أشأ أن أدخل فى جدال معه ، فانتقلت إلى مسألة كوريا وسألته : ماذا تنوى الصين أن تنشىء فى كوريا ؟ وهل تعتبر عودة قوات الأمم المتحدة إلى خط العرض الثامن والثلاثين أمراً ضرورياً للسلام فى كوريا ؟ وإذا تم ذلك ، فهل تضمن الصين بقاء ذلك الخط حداً فاصلا بين الشمال والجنوب إلى أن يتم توحيد كوريا سلمياً ؟ وأليس من الممكن الفصل بين مشاكل آسيا الشرقية ومسألة كوريا فى سبيل إنهاء شقاء الشعب الكورى بأسرع ما يمكن ؟ فاكتفى بترديد التهم المعهودة ضد الولايات المتحدة . واختتم بقوله : « يرغب الشعب الصينى فى أن تصل مفاوضات الصلح قريباً إلى اتفاق على أساس عادل معقول . إن وقف إطلاق النار وعقد هدنة هما الخطوة الأولى نحو حل مشكلة كوريا سلمياً. إن المستعمرين الأمريكيين يأبون سلوك هذا السبيل . ولكننا واثقون من أننا سنشق هذا السبيل بجهود الشعب الصينى والشعب الكورى والشعوب الآسيوية الأخرى وشعوب العالم أجمع » .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحاً ، فأمسكت عن متابعة الأسئلة ، والتفت «تشو ان لاى» إلى الآخرين . فنهض المبعوث الأندونيسى وتكلم لأول مرة مدة عشر دقائق بلغة بلاده . ولما تُرْجم خطابه صمت الجميع كأن على رؤوسهم الطير لأنه كان قد سأل : « ما هى سياسة الصين تجاه الصينيين المغتربين فى بلدان آسيا الشرقية الجنوبية ؟ هل

يقبلون جنسية البلدان التى يقيمون فيها ، أم هل سيكونون وسيلة للتوسع الاستعمارى الصينى فى آسيا ؟ »

حقاً إن الاستعمار والشيوعية يعملان يداً واحدة فى آسيا وأوربا الشرقية . ومن ثم كان السؤال محرجاً مهيناً ، فثار له « تشو ان لاى » فى البداية ولكنه عاد فتمالك نفسه. وتمكنت بفضل سورة غضبه من الحصول على نصين لجوابه — أولهما الذى دونته فى مذكراتى ، والثانى النص الرسمى. ولا شك أن الفرق بين النصين يلقى ضوءاً على سياسة الصين .جاء فى مذكراتى ما يلى :

« إن مشكلة الجنسية حديثة العهد . فقد سنت بعض الدول جنوب شرقى آسيا قوانين خاصة بجنسيتها . ونحن مستعدون للدخول فى مفاوضات معها بهذا الشأن . ونحن ندرك أن الشعب المناضل فى سبيل التحرز يرتاب كثيراً فى أقرب تأثير خارجى . ولكن يجب أن نؤمن بالحقيقة . لقد قضيتم فى الصين ثلاثة أسابيع واطلعتم على واقع الأمور . إنّا نعطف على كفاح أندونيسيا ضد هولندة ، كما نعطف على كفاحها الآن ضد الاستعمار الأمريكى . لقد عانت أندونيسيا العدوان اليابانى ، كما عانت الصين مثل ذلك . إننا أمم استعبدها الاستعمار الأجنبى ، فيجب أن يفهم بعضنا بعضاً . ويجب أن تعرفوا الشعب الصينى . نحن لا ندافع عن أجدادنا الذين اقترفوا العدوان ضد الشعبين الكورى والفيتنامى فى الماضى . إنما نحن نجحدهم ونتعهد بأن لا نكرر خطأهم . لن تكون الصين الشعبية استعمارية

وما دمنا نقاوم العدوان فلن نبادئ به أحداً . إن الاستعماريين ينشرون الشائعات ضدنا ليسهلوا عدوانهم ويفككوا وحدتنا » .

أما النص الرسمي فهو كما يلي : « لما كنا أمماً منها ما ذاق اضطهاد الاستعمار في السابق ، ومنها ما لا يزال يرزح تحت نيره ، أعتقد أن في الإمكان أن يفهم بعضنا بعضاً . وفي وسع محمد طبراني من البعثة الأندونيسية أن يدرك مبلغ عطف الأمة الصينية التي هبت بعد تحريرها من الاستعباد لنصرة شعوب العالم المستعبدة . لا ننكر أن أجدادنا في العهد الإقطاعي اعتدوا على بلدان شقيقة في آسيا ، ككوريا وفيتنام ، ولكن ذلك كان جرماً اقترفه الحكم الإقطاعي في الصين ، ولقد جحدنا ذلك واستنكرناه ، كما طردنا المستعمرين وقهرنا قوات الإقطاعية . والصين الشعبية اليوم لن تأتي عملاً كهذا . وأعتقد أن جميع الحاضرين بما فيهم أصدقاؤنا من أندونيسيا قد لاحظوا شدة حماس الشعب الصيني في استقبالهم والترحيب بهم . إن الصين الجديدة تقاوم العدوان ولن تبادئ به أحداً . وأخيراً دعوني أذكركم بأن الاستعماريين ينشرون شائعات مفادها أن الصين ستبدأ بالعدوان ، وما ذلك إلا لتفريق شملنا . فهل في وسعكم أن تصدقوهم ؟ إنهم يأملون في بث الشقاق والشكوك بيننا ليسهلوا عدوانهم . فلنبادر نحن الشعوب المحبة للسلام ، إلى الاتحاد حافظين القول الدارج : احترس من النشالين ! »

أرسلت نصي للتصحيح ، فعاد إليّ بعد ثلاثة أيام وعليه الكثير من

التحوير بالقلم الأحمر ، ومعه النص الرسمي . وكنت أخشى أن يسبقني غيري إلى النشر ، فقد كان بين الحضور بابلو نرودا وإيليا اهرنبرج ، وكان معظم الصحفيين الباقين من الشيوعيين . وكان ســؤال المبعوث الأندونيسى مفاجئاً وصريحاً . وكان بعيد الأثر ، لأن الصينيين المنبثين فى أقطار آسيا الشرقية الجنوبية يقومون بدور يهدد كيان تلك الأقطار وحريتها .

ولقد حاول «تشو ان لاى» فى سورة غضبه أن ينكر التحدى ويؤكد رغبة الصين فى حل المسألة سلمياً . ولكن هذا القول ينطوى على تعهد لا تنوى الصين الارتباط به وتنفيذه . وكان « تشوان لاى »قد عيّر الصحفى الأندونيسى بقوله إن بلاده لم تكن مستقلة بعد ، وإنها بحاجة إلى التحرر من الاستعمار ، وأنه لم يفهم ما رآه فى الصين .

ولقد أفدت كثيراً من ذلك البحث ، ورأيت كيف يضبط « تشوان لاى » نفسه . وكنت قد خبرت مثل هذه الغضبات العابرة فى نهرو مراراً ، ولكن نهرو كان يعود فيبتسم معتذراً عن تسرعه . أما غضبة « تشو ان لاى» فقد سرت سرياناً خفياً فى تأدبه الودى الساحر ، مما جعل السامع يتأسف على أنه الباعث على ذلك التهيج .

ولقد رأيت « تشوان لاى » مراراً بعد ذلك ، ولكن لم تسنح فرصة أخرى لإلقاء الأسئلة عليه . وفى رحلتى الثانية أرسلت إليه عن طريق ضابط الاتصال بعض الأسئلة حول بيانه للمبعوث الأندونيسى ، فقيل لى بعد أيام إنه إما أن يقابلنى وإما أن يرسل إلى جواباً مكتوباً . ولم يحدث لا هذا ولا ذاك !

الفصل الخامس

تشي باى – شي

امتازت رحلتى الثانية إلى الصين بزيارة مرسم الفنان الشيخ تشي باى – شي الذى ذاع صيته قبل حركة التحرير، ثم ظل مغموراً بعدها إلى أن أوصى إيليا إهرنبرج الكاتب السوفيتى برد اعتباره إليه . ذهبت إليه فى صحبة خبير فرنسى بشؤون الصين وزوجته . وكان ذلك صباح يوم جميل من أيام الربيع ، عابق بأريج الأزهار . ووصلنا ، فبدا لنا منزله من الخارج صغيراً زرياً متهدماً، ولكن من المستحيل الحكم على منزل من منظره الخارجى . وفتح الباب لنا خصى بدا صوته المتخنث غريباً فى جو الصين الجديدة . غير أنى أدركت بعد أن أغلق الباب خلفى أننى فى قلب الصين الحقيقية التى لا تبدلها الإعلانات الصارخة والدعايات والهتافات . هناك كان الفقر والجوع والحرمان .

اجتزنا الصالة الصغيرة ، فأدخلنا إلى غرفة هى المرسم والمسكن وكل شىء . وأدركت على الفور لماذا لا يسمح للزائر بارتياد هذه الأحياء .

فالشيوعية لا ترى إلا الجانب الواحد من الوجه . لكى لا تصدم المؤمن بشاعة الجانب الآخر . إن الجمال ، سواء فى ظل الشيوعية أو فى ظل الرأسمالية ، إنما يُستخلص من شقاء البشر . وكانت فى ذلك المرسم الحقير طائفة من أبدع الرسوم للصين الحديثة ، مطوية مهملة يعلوها غبار السنين. وكان يزين أحد جانبى الغرفة أربعة مقاعد محطمة بالية وإبريق للشاى ، بينما قامت فى الجانب الآخر مائدة عالية مغطاة بقماش أخضر ، عليها يرسم الفنان تحفه .

جلس الفنان على مقعد وهو يرتدى قفطاناً صينياً حائل اللون ، فجلسنا حوله . إنه فى الثانية والتسعين ، بيد أن الكبر لم يفسد عليه عبقريته المبدعة . جلس جامداً لا يتحرك منه سوى لحيته المشعثة البيضاء . وكان من الصعب التحدث إليه ، لأنه يجهل الصينية ولا يفهم إلا اللهجة الهونانية. وكان صديقى الفرنسى قد استصحب معه صينياً آخر معلماً فى الفنون : ولكنه لا يعرف الإنجليزية ، مما أحوجنى إلى مترجمين .

وكنت قد رأيت تشى باى — شى فى رحلتى الأولى أثناء إحدى المآدب الرسمية . فقد دخل بقفطانه الحريرى الأسود وطاقيته المخملية ، يعتمد على ذراع مدبرة منزله التى كان ينوى الزواج منها رغم سنه ، وفى يده الأخرى عكاز مدهون بالأحمر . وبدا غريباً عن ذلك المحيط الذى كان يعج برجال ونساء فى ثياب زرق موحدة ، وكأنه حكيم بُعث من عهد كنفوشيوس

ليعود بالناس إلى التقوى الإنسانية وعبادة الأجداد . أما اليوم ، فقد بدا كأنه خسر المعركة الروحية ، وبات لا ينشد غير الراحة . إنه أعظم فنان فى الصين الجديدة ، مع أنه ينتسب إلى المدرسة التقليدية التى لم تعد تعتبر فناً ، فالشيوعية لا تؤمن بالفن من أجل الفن . وهو لا يرسم إلا الأطيار والأزهار والأسماك . وكان اكتشاف إهرنبرج إياه بعد أن حمل ذكره إبان الثورة ، قد رد إليه اعتباره كفنان ، ولكنه لم ينقذه من الفاقة والحرمان ، لأن بضاعته كاسدة . وقد طبعت الحكومة مجموعة من اللوحات الفنية فى كتاب ثمين لإهدائه إلى الزائرين ، مع أن اللوحات الأصلية تباع بثمن زهيد فى مخازن بكين .

أردت من « تشى » أن يرسم لى صورة لأشاهده وهو يعمل . وصبت مدبرة منزله الشاى التقليدى ، ودهشت إذ لم أر فى فناجيننا غير الماء الساخن بينما كان فى فنجان الفنان بعض أوراق الشاى ، وأدركت أن فقره لا يسمح له بوضع أوراق الشاى فى فناجين ضيوفه ! ! وانقلب الشيخ إنساناً آخر حالما سمع برغبتى ، فشمر عن زنديه متحمساً وقال : إنى مستعد ، ولكن ذلك يكلف ٤٤,٠٠٠ يوان لكل قدم مربعة . مما يعادل نحو دولارين ، فوافقت من فورى . ثم سأل : ماذا تريد ؟ أزهاراً أم أطياراً أم أسماكاً ؟ قلت : ارسم ما شئت ، ما يعن لك . وأضفت أنى سأكتب عنه لأطلع شعب بلادى على فنه ، وبودى لو يرسم شيئاً يرمز إلى الصداقة القديمة

القائمة بين بلدينا . وكأنه لم يفقه شيئاً مما قلت ، فكرر سؤاله . ولم أشأ أن أعين له موضوعاً بالذات ، فقلت : ليكن منظراً طبيعياً ، فقد رأيت الكثير من رسوم الأزهار . فصمت لحظة وأخذ يحدق فى وجهى ، ثم قال للمترجم : قل له إن ذلك يكلف ضعفى المبلغ . فوافقت دون تردد ، وأنا أقدر شدة فقر الرجل واضطراره إلى الطمع . كان فى وسعى أن أشترى لوحة من لوحاته مساحتها ثلاث أقدام مربعة بأربعين ألف يوان ، ولكنى كنت شديد الرغبة فى أن أراه يرسم بناء على طلب ، لا بدافع الحاجة . وأخرجت المرأة الورق من الخزانة ، ثم بدأت تسحق دهانه ، ووقف هو برهة يمسك بالفرشاة ويتأمل الورق. وفجأةوضع أصبعه على بقعة معينة وبدأ يدهن . ثم رفع رأسه إلىّ وقال : سأرسم صورة بسيطة ، لأن الجيد دائماً بسيط .

وبعد أربعين دقيقة كان أمامى على الطاولة منظر طبيعى يمثل مرجاً فيه بقرتان . كنت أعلم أنالصينيين يرون أن الرسم بالأسود والأبيض أروع الرسوم ، ومع ذلك شعرت بالخيبة من جراء شدة بساطة ذلك الرسم . ورفعت المرأة الصورة ونشرتها على الحبل لتجف . وصمت أنا فى حيرة ، غير أنى عقدت العزم على استخلاص قصة من تلك الزيارة . وهكذا بادأته بحديث كشف لى عن نفسية فنان عظيم وعن روحية الصين القديمة . سألته : لماذا رسمت بقرتين ، إحداهما رابضة والأخرى واقفة وقد

أدارت ظهرها تنظر إلى الأفق البعيد ؟ وهل هما ترمزان إلى حضارتى الصين والهند ؟

فهز رأسه قائلا : ليس للصورة أى مغزى ، فأنا لست سياسياً . إنهما حيوانان لا أقل ولا أكثر . فقلت : لماذا بقرتان بالذات ، لا حيوان آخر؟ قال : عنّ لى أن أصور بقرتين . ثم أشرق وجهه وأردف : إن البقرة تذكرنى بطفولتى . ألا تعلم أنى كنت راعى بقر حتى بلغت الثانية عشرة ؟ قلما رسمت البقر فى صورى السابقة ، ولكنى اليوم تذكرت طفولتى .

— أكانت طفولة سعيدة ؟

— ولدت فى أسرة قروية فقيرة . والفلاح الفقير لا يفكر فى السعادة .

— أين تعلمت فن الرسم؟ ولماذا رغبت فيه ؟

— لما كنت فى الثانية عشرة طرأ على حياتى حادث غير مجراها . عدت ذات مساء مع البقرات ، فوجد جدى أن واحدة منها ناقصة ، ولم أكن أدرى أنها أفلتت وضلت السبيل . فضربنى وأساء معاملتى ، فهربت من البيت ، واشتغلت كأجير لنجار فى القرية المجاورة .

أدركت إذ ذاك ماذا قصد بالبقرتين فى الصورة . كانت إحداهما البقرة التى هربت منه ، فجلبت له التعاسة والشقاء . كانت بداية فنه الإبداعى . وكدت ألمس مأساة طفولته المعدمة . لقد رسم لى صورة عادت به إلى

قريته بعد غياب ثمانين عاماً ، جاب فيها أنحاء الصين فلم يظفر بالسعادة إلا فى قريته التى عاش فيها غير عابئ بأية سعادة أو شقاء . فسألته ثانية : وكيف أتيت إلى بكين ؟ ألم تظفر فيها بالنجاح والسعادة ؟ قال : أتيت إلى بكين فى سن الخمسين ، بعد أن قضيت أكثر من ثلاثين عاماً أنتقل من قرية إلى أخرى وأتعلم الحفر فى الخشب ، والخط ، والرسم . ووجدت جمال الطبيعة فى ريف هونان . ولقد تعلمت الرسم على يد ثلاثة أساتذة ، لم ينتسبوا للمدرسة الأرستقراطية التقليدية .

وكررت السؤال عن سبب مجيئه إلى بكين ، فأجاب : كنت طموحاً ، ونجحت هنا فى بيع لوحاتى . وكنت أعلم ولع الصينيين بالفن المزخرف ، فأخذت أرسم ما يرغبون فيه لأضمن الرواج .

وكان قد جاء حفيده ، فتدخل قائلا : إن جدى ليس برجوازياً . ولما قال إنه كان طموحاً ، كان يعنى أنه أراد خدمة الشعب .

كان الحفيد يضع شارة الحزب ، وكان فناناً أيضاً ، ولكنه إنما يرسم ما ترغب فيه الصين الحديثة . ولعله يرسم ماوتسى — تونج وسواه من الزعماء . ولاحظ ابتسامة الارتياب على وجهى ، فروى لى القصة التالية ، وأنا أسردها على علاتها ، قال : أراد جدى حتى فى عهد حكم « المانشو » أن يظل مع الشعب ومن الشعب . وأعجب أهل البلاط بلوحاته ، فعرض الإمبراطور عليه أن يعينه حاكماً ! فاعتذر جدى وهدد بالعودة إلى القرية

ليعيش عيشة السلام التى ألفها . إن جدى لا يزال كما كان دائماً من الشعب .

لا أدرى إن كان « الشعب » يجد أى معنى لرسوم الأزهار والأطيار والأسماك . فلم أر صورة من رسم تشى باى — شى معروضة فى معارض الصين الجديدة ومتاحفها . وفنان الصين العظيم هذا لم يستطع لفرط فقره أن يقدم الشاى لضيوفه . وما كان ليسترد كرامته واحترامه لولا أن صحافياً روسياً أعجب برسومه . واستأثر الحفيد بالحديث ، وصمت الشيخ إعياء ، فحملت رسمه ورسالته وخرجت ! !

الفصل السادس

الاستعمار الجديد

قال لى « كومو – جو » نائب رئيس الوزراء رداً على سؤالى : أبرمت المعاهدة الصينية الروسية لمنع أى عدوان من قبل اليابان أو أحد حلفائها . وهى تختلف عن حلف شمالى الأطلسى الذى هو حلف للحرب . وما منظمة حلف الأطلسى إلا سيف مصلت للفتك . ونحن لا نشهر السيف إلا فى سبيل الدفاع .

تعتمد الصين على روسيا السوفياتية اعتماداً كبيراً فى سبيل تعزيز قوتها . كما أنها ترتبط بمصالح فكرية واقتصادية بالكتلة الشيوعية ، فهى تواجه مشاكل جسيمة فى إعادة بنائها السياسى والاقتصادى ، وتحتاج إلى جهاز إدارى كفؤ لتنظيم مساحتها الشاسعة وفرض الدكتاتورية الشيوعية على شعب اعتاد الحياة الفردية والتسامح والتفاهم . كانت موارد الصين الصناعية والمالية فى فوضى ، والمجاعة تجتاح البلاد . وكان الاستغلال والاحتلال قد فتحا البلاد للغزو والاحتلال ، وكان شيوعيو الصين بحاجة إلى الوقت والمساعدة لكى يوحدوا البلاد ويحسنوا معيشة الشعب .

ومن المؤسف أن سياسة الولايات المتحدة المضطربة ولدت فى النفوس

مرارةً وسخطاً ، وجعلت الصينيين يرتابون فيها حتى فى الأمم المتحدة . فلم يجد « ماو تسى تونج » بدًّا من طلب العون من الاتحاد السوفياتى . وكان الروس حتى عام ١٩٤٥ يعتمدون على « تشيانج كاى ــ شك » فى توحيد الصين واستقرارها . وسار « ماو تسى تونج » على هدى نجمه الخاص ، فبدأ بحملة على ملكية الأراضى تمهيداً لحرب تحريرية ، وظل ٢٣ سنة يكافح ويناضل دون أى عون من الروس . ووصفه الكومنترن بأنه انتهازى ، وتركه يبنى « جمهورياته السوفياتية الخيالية فى القفار الجبلية » بدلا من قيادة حركة شعبية شاملة . ولم يظل يقود المعارك فحسب ، بل وضع لشيوعيى الصين نظريتهم الخاصة فى الثورة . وها هو الآن يفتقر إلى العون الروسى .

ولقد كتب ماو عام ١٩٤٩ يقول « يجب أن نتحد فى الخارج مع شعوب كافة البلدان ، ومع الأمم التى تعاملنا على قدم المساواة . وهذا يعنى التحالف مع الاتحاد السوفياتى ومع كل ديمقراطية جديدة ومع الطبقات الكادحة فى جميع البلدان . ومعنى هذا إنشاء جبهة موحدة دولية » .

فما الذى جعله يغير آراءه ؟ كانت محاولات أمريكا لتوحيد الصين وإنشاء حكومة ائتلافية فيها قد فشلت لأنها ظلت تمد قوات تشيانج بالمعونة العسكرية ، التى استعملها تشيانج لإفناء الشيوعيين . وفى يوليو ١٩٤٩ لم يكن قد تم توحيد البلاد ، إذ كانت قوات الكومنتانج لا تزال متمركزة

فى الجنوب . وكان « ماو تسى تونج » فى نوفمبر ١٩٤٨ قد صرح بمايلى : « إن مهمة الشيوعيين هى توحيد القرى الثائرة فى البلاد ، وطرد المستعمرين الأمريكيين ، وقلب حكم الكومنتانج الرجعى ، وإنشاء جمهورية شعبية ديمقراطية موحدة متحالفة مع الاتحاد السوفياتى » .

فلما أنجز مهمته ، لجأ إلى روسيا فى طلب المعونة ، إذ أحس بما يكتنفه من مشاكل جسام لا قبل له بها إلا إذا وطد الأمن الداخلى ، وصار مستعداً لمواجهة تشيانج إذا حاول العودة . وفى ديسمبر ١٩٤٩ ذهب إلى موسكو للمرة الأولى ، وبعد أسابيع من المشادة عاد بالمعاهدة الصينية الروسية للصداقة والتحالف وتبادل المساعدة . وعقد اتفاقاً آخر نال بموجبه إعانة اقتصادية قدرها ٣٠٠ مليون دولار فى مدى خمس سنوات. وكان لإعلان أمر المعاهدة أثره السياسى والاقتصادى ، إذ ضمن استحالة غزو البلاد إلا بالمجازفة بإثارة حرب عالمية .

ولا شك أن هذه المعاهدة معقودة بين فريقين غير متكافئين . فمع أن الصين تملك وفرة من الموارد والأيدى العاملة ، فإنها تعتمد كلياً على مساعدات روسيا العسكرية والفنية . ويعرف « ماو تسى تونج » ذلك ، ولكنه بحاجة إلى المعدات الحربية التى تجعل من جيشه آلة حربية عصرية. ولقد رأيت الجيوش فى استعراض أول أكتوبر تسير ومعها كثيرمن المعدات الحربية الأمريكية التى غنمتها من الكومنتانج . لكن هذه المعدات أصبحت

قديمة ، ولا بد من الحصول على أحدث المعدات ويهم روسيا فى نفس الوقت الاحتفاظ بجيش قوى يحمى حدودها الشرقية . ولذلك نرى اليوم فى الصين سلاحاً جويًّا حسن التدريب مزوداً بأسلحة وأجهزة روسية .

وكانت الصين بحاجة إلى تصنيع يخفف وطأة الضغط على الأراضى . وكان لابد من تجديد الصناعات الراهنة وإنشاء صناعات ثقيلة . ولكن روسيا لم تكن تستغنى عن كثير من البضائع الرئيسية والمساعدات الفنية ، مع أن الأثر الروسى ملحوظ فى كافة أنحاء البلاد . ففى منشوريا ترى صورة ستالين دائماً إلى جانب صورة « ماو تسى تونج » . ولافتات المحطات والفنادق والمسارح فى كل مكان مكتوبة باللغتين . وقد استبدلت الإنجليزية بالروسية فى المدارس والكليات ، وغصت مخازن بيع الكتب (المكتبات) بالكتب والمجلات والنشرات الروسية . ويعنى ليو شاو — تشى بترجمة الماوية إلى الستالينية وبالعكس ، وحرّف تاريخ الثورة ليثبت ما قدمته روسيا للصين من مشورة ومعونة . ويشعر « ماو تسى تونج » بتزايد تأثير روسيا وباعتماده عليها ، ولكن لاحيلة له فى ذلك ، فالدول الغربية ألقت به فى حضن الدب الروسى . وهو يجد حوله « ليو شاو — تشى » و « ينج تشن » و « كاو كنج » [1] من اليساريين الذين يصرون على صبغ الصين بالصبغة

(١) أصبح كاوكنج الآن فى ذمة التاريخ . فقد طرد من الحزب الشيوعى الصينى وعومل معاملة قاسية فظة دفعته إلى الانتحار فى عام ١٩٥٥ . أما سبب طرده من الحزب فهو انتقاده لدكتاتورية ماوتسى تونج ومطالبته بمنح الشعب الصينى مزيداً من الحرية .

السوفيتية . وفى المدارس والكليات ينشأ جيل جديد يتدرب على الأصول الروسية ، وسيفوز النفوذ الروسى حتما فيما لو نشأ خلاف داخلى حول السلطة .

ويقال إن « ماو تسى تونج » حدّث السفير الهندى عن زيارته لإحدى مصانع الطائرات فى موسكو فقال فى تعليقه : « لا نستطيع نحن ولا أنتم أن نقوم بعمل حاسم إلا بعد أن يكون فى بلدينا مثل هذا . وإلى ذلك الحين يجب أن نتحرك ببطء . » وهكذا نرى « ماو تسى تونج » يتحرك ببطء ولكن بثبات ، لكنه لن يصبح مثل تيتو لأنه مرتبط تاريخيًّا وفكرياً بالتفاهم مع روسيا. بيد أنه يسعى فى نفس الوقت إلى التفاهم مع بلدان آسيا لا سيما الهند ، يساعده فى ذلك كره الصينيين التقليدى للأجانب ، مع أن الروس كانوا يوماً ما يعدون من الأجانب ، ويلقبهم الرجل الصينى العادى بذوى الأنوف الكبيرة .

فى أول أكتوبر ١٩٥١ أعلن « ماو تسى تونج » لأول مرة شعار الاتحاد الآسيوى ، وفى الحفلات التى تلت ذلك ، قدّمت البعثة الهندية على جميع البعثات عدا السوفياتية . وعندما رحب « ماو تسى تونج » بالسفير الهندى فى سبتمبر ١٩٥٢ كرر قوله « إنى واثق من أن التعاون الودى بين بلدينا سيتعزز فى سبيل إقرار السلام فى آسيا وفى العالم أجمع » . وأعرب الشعب عن تأييده لقول زعيمه بالترحاب الحار الذى استقبلنا به . وفى

ذلك ما فيه من مغزى ، ومن تحذير لروسيا بأن الصين تؤازرها ملايين البشر فى آسيا . وقد أثبت العامان المنصرمان أن الشيوعية الصينية نجحت فى آسيا حيث فشل الروس . وإنى واثق من أن الحديث عن الاتحاد الآسيوى يهدف إلى تحقيق أمن جماعى إقليمى ضد الغرب والشرق معاً . إنه طريقة « ماو تسى تونج » فى فرض المساواة مع السوفيات ، وفرض السلام على الغرب . ولما سألت « كومو — جو » عن ذلك أجاب « إننا نهدف من وراء الاتحاد الآسيوى إلى تحسين حالة الشعوب المتأخرة وإحقاق حقها فى الاستقلال وتقرير المصير . نحن لا ندعو إلى مبدأ كمبدأ مونرو فى أمريكا ، ولا نبتغى آسيا لأنفسنا ، ولا نرفض الثقافة الغربية . فالاتحاد الآسيوى إنما هو خطوة نحو الاتحاد العالمى » . فسألته : كيف يمكن أن يكون الاتحاد الآسيوى خطوة نحو الاتحاد العالمى والسلام إلا إذا أنشأت دول آسيا كتلة ثالثة تحفظ التوازن بين الغرب والشرق ؟ أليست هيئة أمم متحدة اتحادا حقيقيا أضمن للسلام ؟ فأجاب : « إن الاتحاد الآسيوى يضمن السلام . فليس ثمة فى العالم سوى قوتين — قوة السلام وقوة الحرب — ولا توجد قوة ثالثة . والاتحاد الآسيوى يعزز قوة السلام . وليست جميع الدول الغربية استعمارية ، فمعظم الشعوب الغربية محب للسلام ، ونحن ننزع إلى السلام . ولما كان النزاع يزداد حدة ، فإنه لا أمل فى السلام إلا بتعزيز الفريق الذى ينزع إليه . وليس هناك سبيل وسط ، ولذلك

يشكل الاتحاد الآسيوى خطوة نحو السلام والاتحاد العالمى . »

وتذكرت ما كتبه « ماو تسى تونج » عام ١٩٤٩ إذ قال « إن أربعين سنة من اختبارات صون يات — سن ، وثمانى وعشرين سنة من اختبارات الحزب الشيوعى الصينى ، قد علمتنا ألا سبيل إلى إحراز النصر وتثبيته إلا إذا ملنا إلى أحد الجانبين — جانب الاستعمار أو جانب الاشتراكية . وليس لهذه القاعدة شواذ ! وليس ثمة سبيل ثالث . وما الحياد إلا تعمية . » وفى هذا القول ما فيه من المغالاة ، فاللون إما أبيض وإما أسود ولا ثالث بينهما ، مع أنه سبق لماو تسى تونج أن قال « إن المبدأ المتزمت أقل نفعاً من روث البقر ، فالروث ينفع كسماد للتربة . » وها هو قد غير رأيه ، وأخذ يتحدث عن اتحاد مع أمم سماها كلاب الاستعمار فيما مضى . ويبدو أن تحالفه مع السوفييات سرعان ما نبهه إلى وضعه الواقعى .

ولعل الحرب الكورية هى التى جعلته يبدل نظرته إلى العلاقات الخارجية . ولقد كانت كوريا دائماً الباب الذى ولجه غزاة الصين . كما أن الهند الصينية جزء من « منطقة الأرز » التى تغذى جنوب الصين . ويهم الصين أن تكون فى كل من ذينك البلدين دولة صديقة . ولكنها منهوكة القوى من جراء الحروب ، فما كان يسعها إلا أن تتردد فى خوض غمار حرب فى إحداهما لو لم تكن مؤملة فى إنهائها بسرعةوموعودةبإمدادات عسكرية واقتصادية . وقد لاحظت علائم الامتعاض والخيبة لأن الوعود

لم تحقق ما كان مأمولا منها . وقد نجحت الحرب فى بدايتها فى إعادة تنظيم الجيش وتدريبه على أصول الحرب الحديثة ، كما نجحت فى تنظيم الصناعة وحفز الشعب إلى التضحية باسم الدفاع القومى ، فخضع للتبرع الإجبارى والتقشف وتصفية معارضى الحكومة ، وتقبل ارتفاع الأسعار وإرهاق العمل . ولكن لكل شىء حدًّا ، فبدأ التذمر والتبرم . وكثيراً ما كنت أسأل : لماذا اجتاح الكوريون الجنوبيون شمال البلاد إذا كانوا كما تزعم الصين لا يؤيدون زعيمهم « سنجمان رى »؟ وقد أجاب أحد كبار الشيوعيين على ذلك قائلا : كان فى وسع الكوريين الشماليين أن يقضوا على مأجورى « سنجمان رى » دون أن يشتبكوا فى حرب واسعة ، ولكنهم تسرعوا .

وكانت المرارة بادية فى الأنباء التى تنشرها الصحف عن مفاوضات الهدنة الكورية ، وكان لا بد من اتهام الحلفاء بالحرب الجرثومية لرفع معنويات الشعب وإثارته إلى المزيد من التضحية . وكانت الصين راغبة حقًّا فى إنهاء الحرب الكورية ، ولكنها كانت تخشى من فقدان ثقة الشعب الذى قيل له إن الحرب لن تنتهى إلا بالنصر المبين . وطفقت الدعاية تكرر قصة الصياد والنمر : وضع الصياد (الولايات المتحدة) يده فى فم النمر (الصين) ، ولم يعد فى وسعه أن يسحب يده إلا إذا جازف بحياته .

ولكن من سوء حظ النمر أنه لا يقوى على ابتلاع الصياد ، ولذلك اصطنع الدعوة إلى الاتحاد الآسيوى ، لا لتعديل التوازن بين فريقى الحلف الصينى السوفياتى فقط ، بل لإنقاذ سمعة الصين فى كوريا أيضاً .

ولقد أخذ « ماو تسى تونج » يتحدث الآن عن التعايش مع الرأسماليين « وكلابهم » . وهذا التعايش السلمى لا يمكن تحقيقه فى نظر شيوعيى الصين إلا بعد أن يكون الاتحاد الآسيوى قد عزز سلطة ماو تسى تونج ، وأجبر العالم على الخضوع للسيادة الصينية السوفياتية . وتأمل الصين فى استغلال العشرة ملايين صينى المغتربين فى جنوب شرقى آسيا لتحقيق هذه الغاية ، ولذلك ترغمهم على الاحتفاظ بجنسيتهم الأصلية . وإنى واثق من أنها لن تتخلى عن الصينيين المقيمين فى أندونيسيا والهند الصينية وتايلند والملايو والهند وبورما ، على الرغم من أنهم قضوا أجيالا فى مواطنهم الجديدة . ولقد حدث عام ١٩٥٢ أن زارت الصين جماعة من الطلاب الصينيين الأندونيسيين يحملون جوازات سفر أندونيسية ، فصادرت الصين تلك الجوازات وأرغمتهم على حمل جوازات صينية ، ولم تُجد احتجاجات المفوضية الأندونيسية فتيلا . وللصينيين المغتربين ستة عشر عضواً فى المجلس السياسى الاستشارى الشعبى ، ويبدو من هذا أن الصين لا تنوى التنازل عن الذين نزحوا عنها منذ عدة أجيال . وتُستعمل جميعُ فنونِ التهديد والتلقين والضغط لإخضاع العشرة آلاف صينى المقيمين فى كلكتا ، حتى لقد

اضطر أحد معلمى المدارس هناك إلى الانتحار تخلصاً مما واجهته به زوجته وحماته من تهديد خطير .

وهكذا تنوى الصين استغلال أولئك الرعايا المغتربين ، فى تحرير جنوب شرقى آسيا من الاستعمار الأجنبى وإنشاء اتحاد آسيوى ، وتستعين على ذلك بفقرهم ومنعهم من التجنس بجنسية أخرى . ويقاسى « هو تشى منه » فى الهند الصينية كفاحاً مريراً بمؤازرة الصين التى تتظاهر بعدم التدخل . وأصبحت ثايلند فريسة سهلة بسبب فساد السياسيين والمشادة القائمة بين الدبلوماسيتين البريطانية والأمريكية . وسيظل الحال على هذا المنوال ، إلا إذا أدركت الأمم الآسيوية أن المحرر المزعوم ليس إلا استعماراً جديداً . وستكون علاقة الصين بالهند عاملا رئيسياً فى أى تطور قد يحدث فى جنوب شرقى آسيا ، بفضل ما لمغتربيها من مصالح اقتصادية وسياسية هامة . وقد سُمح لمغتربى الهند باتخاذ جنسية البلاد التى يقيمون فيها . والصين لا تحترم الحكومة الهندية ولا ترعى مصالحها ، رغم تبجحها بصداقة تقليدية ترجع إلى ألفى عام . وليست الهند دولة مستقلة فى نظر شيوعيى الصين ، وصحافتهم تندد بنهرو والانتخابات الهندية وتزعم اشتداد سيطرة الأمريكيين على اقتصاديات الهند . وقد نعتت الهند « بكلب الاستعمار » عندما أيدت قرار الأمم المتحدة باعتبار كوريا الشمالية هى المعتدية . وكذلك بدا الفرق كبيراً بين ما عومل به كل من الوفدين اللذين

رافقتهما . كان أحدهما وفداً شعبيًّا ، فقوبل بأحر مظاهر الترحاب . وكان الآخر حكومياً ، فقوبل بالرسميات الجامدة دون استقبالات شعبية ، وكان برنامج زياراته مسيراً أكثر من الأول .

ولقد اصطدمت الصين بالهند لأول مرة حول قضية « التبت » . فهذه البلاد صينية من حيث العرق ، ولكنها كانت مستقلة سياسيًّا ولو أنها واقعة ضمن دائرة النفوذ الصينى كمحمية . بيد أن الصين كانت أضعف من أن توثق الروابط بينها وبين « التبت » فحاولت روسيا والسلطة البريطانية الهند فى أوائل القرن العشرين التدخل فى شؤون « التبت » التى هى أقرب إلى الهند فى ديانتها ولغتها وثقافتها . وكان من مصلحة الهند أن تحتفظ « التبت » باستقلالها الداخلى. ولكن الصين احتلتها عنوة ، رغم أنها أكدت للسفير الهندى أنها لا تبيت نيات سيئة . وها هى الهند وجارتاها « نيبال » و « بوتان » تعانى نتائج التغلغل الشيوعى فى شؤونها . وعلى حدود الألفى ميل بين الهند والصين يقف جيش ضخم لا للهجوم ، لأن العدوان مستحيل ، ولكن للتأثير على الهند وتحقيق تحريرها ! إن ماو تسى تونج يحتاج إلى الهند ، لا لتعزيز سلطانه فحسب ، بل ليتخذ منها حليفاً اقتصاديًّا يكمل له المعونة اليسيرة التى يتسلمها من روسيا . فروسيا الرسمية تصادق الهند ، بينما تعمل فى نفس الوقت على مساعدة الشعب الهندى فى سبيل « تحريره » المزعوم !

وبينما يسعى « ماو تسى تونج » إلى هدفه الآسيوى ، تثبت روسيا قدمها على أرض الصين ، وتقلل مساعدتها لها بأدب وحزم دون تطفل أو فضول ، قانعة بالانتظار ، لأنها تطمع فى ما لدى الصين من وفرة فى المواد والأيدى العاملة . وهى لن تأتى عملا يثير سخط الصين ، لأنها تعلم أن عامة الشعب فيها تعتبر روسيا دولة غربية ورثت تقاليد الاستعمار والاستغلال . وتتجنب السفارة الروسية فى بكين كل ما من شأنه أن يفسر بتدخل مكشوف فى شؤون الصين الداخلية . وهى تترك التدخل لغيرها إذا اقتضى الأمر . وقد زعم سفير الهند أنه من الخطأ الظن بأن لروسيا أى نفوذ أو سلطة فى الصين . وهو يؤكد زعمه برواية القصة التالية : ألقى القبض على مواطن روسى فى داخل الصين ، وسألت المفوضية الروسية وزارة الخارجية الصينية عن ذلك ، فلم تظفر بأية معلومات . فطلبت منى التدخل شخصياً ، ففعلت ، وأخيراً نجحتُ بعد جهود كثيرة ، فى إطلاق سراح المواطن الروسى ! !

بيد أن الموقف الصحيح الذى يحافظ عليه الروس فى الصين ، يتجلى فى رد الفعل الذى بدا على المترجم الذى كان يرافقنا ، عندما قال له أحد الزملاء : « إنكم تعتبرون الهند بلاداً مستعمرة جزئيًّا ، وتعتقدون أننا لانزال تحت النفوذ البريطانى . أما نحن فإننا نعتقد أنكم تحت النفوذ الروسى الشديد » . فثارت ثائرة المترجم وأجاب : « نعم ، إننا نعتمد على روسيا فى

المساعدات الفنية ، ولم نحاول إخفاء ذلك . ولكن هل رأيت يوماً شخصاً روسيًّا يأمر أحد الصينيين ؟ »

والحق أنى لم أر روسيًّا يأمر صينيًّا . وما ذلك إلاّ لأن الشخص الروسى لا يحتاج إلى ذلك لأنه يجد من يؤدى هذه المهمة القذرة نيابة عنه .

الجزء الثاني

أنتج أو اهلك

الفصل الأول

إصلاح الأراضى



إن إصلاح الأراضى وحده هو الذى غير وجه الصين ، وبعث حيوية شعب كان قد خنقه الجور الإقطاعى . ولقد أدرك شانج كاى — شك أن مركز الثقل فى النصر النهائى الحاسم لا يقع فى نانكين ولا فى سواها من المدن الكبرى ، بل فى قلوب الشعب فى كافة أنحاء البلاد ، ولكنه ركز سلطته فى أصحاب الأملاك الإقطاعيين وأعيان المدن ، ولم يستطع اكتساب ثقة جماهير الفلاحين الذين هم الصين الحقيقية . وجاء « ماو تسى تونج » فاعتمد بكليته على الفلاحين . وقد قال فى ذلك : « إن حرب المقاومة إنما هى حرب فلاحين . فكل ما نستعين به على المقاومة وكل ما نعيش عليه ، يعطينا إياه الفلاح » .

وأضاف «إن القرى والأرياف ستهزم المدن، والحواضر» . وفى كتابه « الثورة الصينية والشيوعية » ، حلل طبيعة المجتمع الصينى فقال :

« لما كان مجتمعنا الحالى بعضه مُستعمر وبعضه نصف مُستعمر والبعض الآخر نصف إقطاعى ، فإن أكبر أعداء الثورة هم المستعمرون وأصحاب الأملاك نصف الإقطاعيين . لذلك فإن طبيعة الثورة فى مرحلتها الحاضرة ليست اشتراكية شعبية بل ديمقراطية برجوازية . إنها مؤلفة سياسياً من عدة طبقات ثورية تضافرت لتشكل دكتاتورية ديمقراطية ثورية ضد المستعمرين والخونة والرجعيين ، ولتقـاوم المجتمع الصينى إلى مجتمع للدكتاتورية البرجوازية . وهى تحاول من الوجهة الاقتصادية تأميم جميع المصالح الكبرى وجميع مشاريع المستعمرين والخونة والرجعيين ، وتجزئة الأملاك الكبيرة وتوزيعها على الفلاحين ، حريصة فى نفس الوقت على مساعدة الصناعات المتوسطة والخاصة ، غير محاولة القضاء على اقتصاديات أغنياء الفلاحين » .

وهذا كفر بالماركسية ، التى ترى فى الاعتماد على الفلاحين كقاعدة للثورة بدعة جديدة . ولكن صاحب الدار أدرى بما فيها، إذ وجد ماو تسى تونج أن الطبقة الكادحة محدودة العدد محصورة فى المدن تحت رحمة نيران القوات الأجنبية . وكان محور التنازع على السلطة بين ماو وتشيانج هو كسب ثقة الفلاحين ، وانتصر « ماو تسى تونج » لأنه نجح فى تحصين

الحزب الشيوعى داخل قلوب الفلاحين بما اشترعه من نظام إصلاح الأراضى . ويكاد المرء لا يتصور فقر الفلاح الصينى المدقع . فنى بلاد زراعية تحوى نحو ٤١٠ ملايين نسمة ، كان ١٠ فى المائة فقط يملكون بين ٦٠ — ٧٠ فى المئة من الأرض . وكان نحو ٦٠ فى المئة من الباقين ، إما فلاحين فقراء أو عمالاً لا يملكون أرضاً ، يحصلون على لقمة العيش بأعمال السخرة ، أو باستئجار رقعة صغيرة بمبلغ فاحش ، يبلغ أحياناً ٥٠ — ٧٠ فى المئة من المحصول ، وقد يصل إلى ١٠٠ فى المئة . وهكذا كان الفلاح يعيش على شفا هاوية الجوع ، فريسة سهلة للأمراض والأوبئة ، مما جعله يقبل على اللصوصية والإحراق الجنائى . وبرّ « ماو تسى تونج » بوعده للفلاح ، فتم تطبيق إصلاح الأراضى حتى الآن فى مساحة يقطنها نحو ٣١٠ ملايين شخص ، وسيعم جميع الأراضى .

قال « ليو شاو — تشى » فى تقريره للجنة القومية فى يونيو ١٩٥٠ : إن القصد الأساسى من نظام إصلاح الأراضى هو مصادرة أراضى أصحاب الأملاك وتوزيعها على صغار المزارعين والمعدمين . وهكذا يقضى على أصحاب الأملاك كطبقة اجتماعية ، ويتحول نظام الملكية الإقطاعى الاستغلالى إلى نظام ملكية الفلاحين . ويزعم قانون الأراضى أن الإصلاح إنما أدخل لتحرير الطاقة الإنتاجية فى الريف ، وتنمية الإنتاج الزراعى ، تمهيداً لتصنيع الصين الجديدة . ولما كانت الغاية الرئيسية هى الإنتاج ،

فإن قانون الأراضى لم يمس الفلاح الغنى ولا متوسط الحال » . وأعلن « ماو تسى تونج » فى هذا الصدد « يجب أن نكف عن الاستيلاء على الأراضى الزائدة وأراضى أغنياء الفلاحين . ويجب أن نحافظ على اقتصاديات فلاحنا الغنى ، فليس هناك ما يفوق استرداد الإنتاج فى الأرياف أهمية ونفعا » .

والفلاح الغنى فى عرف القانون الصينى هو الذى يملك أرضاً ، أو الذى يملك قطعة ويستأجر أخرى ، ويعمل فيها بنفسه ويستأجر عمالا لمساعدته . والفلاح المتوسط قد يملك أرضاً أو يستأجرها ، ولا يعول فى معيشته إلا على نفسه . ويمكن أن يقال على وجه العموم إن أراضى الفلاح الغنى والمتوسط لم تصادر . لقد قضت الصين على الإقطاعية بمصادرة الأراضى وسائر وسائل الإنتاج التى كان يملكها كبار أصحاب الأملاك والمزارات والمعابد والكنائس ، والأراضى الريفية التى كانت فى حوزة التجار وأرباب الصناعة ، وبتوزيعها على فقراء الفلاحين الذين لم يكن لديهم وسائل أخرى للإنتاج . وقد اضطرت القيود الاقتصادية الشيوعيين إلى قبول الرأسماليين وأغنياء الفلاحين كفئات صديقة ، فكلاهما ضروريان لصيانة الإنتاج ، ولكن لن يكون لأى منهما مكان عندما يستعاض عن الديمقراطية الجديدة بدكتاتورية الطبقات الكادحة .

وفى الصين ٢٤٠ مليون فدان من الأراضى الزراعية ، وقد شمل برنامج التوزيع نحو نصفها . ولما كان التوزيع على أساس عدد الأشخاص

فقد توقفت حصة الفلاح على عدد أفراد أسرته ، وعلى الناحية التى يقطنها من البلاد . وتختلف مساحة الحصة من منطقة إلى أخرى وبين الشمال والجنوب . ففى الشمال الشرقى قرب موكدن ، كانت حصة النفر الواحد ٢,٧ مو (وهو قياس مساحة صينى يعادل سدس فدان أو نحو ٦٦٠ متراً مربعاً) . وبلغت حول بكين ١,٩ مو ، وفى الجنوب ١,٣ مو . ومثل هذه المزارع الصغيرة تسد حاجة الفلاح إلى الأرض وإن كانت لا تساعد على زيادة الإنتاج . وهى ترفع عن كاهل الفقير عبء أجور الأرض الفاحشة ومطالب المالك الكبير ، وصار يدفع بدلا من ذلك ضريبة أرض للحكومة مقدارها ١٨ فى المئة عيناً من الإنتاج . وأخذ ابن القرية يبدو اليوم أكثر ابتهاجاً وأحسن غذاء وكسوة ، مما يثبت أنه يحتفظ من الإنتاج بقسط أوفر مما كان يحتفظ به سابقاً .

ويعترف الشيوعيون بأن مشكلة الفقر لا تحل نهائياً إلا إذا نهض الإنتاج الزراعى ، وتحقق تصنيع البلاد ، وأمكن رفع مستوى الشعب وانتهت الصين إلى نظام الاشتراكية . ولا يمكن تنمية الإنتاج الزراعى إلا باستعمال الأسمدة والآلات ، ولكن المزارع الجديد لا يملك شيئاً من هذا ، ولا يمكن ممارسة الزراعة الآلية الواسعة إلا إذا حولت المزارع الصغيرة إلى مزارع كبيرة عن طريق المزارع التعاونية أو المزارع الجماعية . فهل يمكن هذا فى بلاد فلاحها شديد التعلق بأرضه ؟ إن إصلاح الأراضى

قد أدى إلى نتائج سيئة بعيدة الأثر فى المجتمع الصينى . فالطريقة التى طبق فيها جعلت الفلاح المتبلد الشعور يثور علناً ضد حكام قريته . وكان موظفو صلاح الأراضى يعقدون اجتماعات يشجعون الفلاح فيها على بث شكاياته ، فأخذ يندد بأصحاب الأملاك ويتحدى الآلهة التى جعلته يؤمن بحتمية مصيره وشقائه . وسالت دماء كثيرة فى أثناء ذلك ، وأصحاب الأملاك القلائل الذين نجوا من النقمة بحجة أنهم لم يقترفوا جرائم فظيعة ، أعطيت لهم مساحات صغيرة من الأرض كسائر الفلاحين ، ليغيروا ما بأنفسهم عن طريق العمل . ونظمت الحكومة جمعيات الفلاحين واستطاعت بواسطتها تركيز إدارة البلاد بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الصين . وأصبح الفلاح بعد أن حقق حلم حياته يعتمد على الحزب الشيوعى ويثق به وينفذ مشيئته طائعاً .

ولما كانت الغاية من إصلاح الأراضى هى تنمية الإنتاج الزراعى وتمهيد الطريق لتصنيع البلاد ورفع مستوى المعيشة ، فإن السلطات المسئولة لا تفتأ تزعم أن الإنتاج الزراعى ينمو نمواً مستمراً . ولما كان المحصول الفائض ضرورياً لموارد التصنيع ، فإنها تنشر إحصاءات تبرر بها تلك المزاعم . بيد أن تلك الإحصاءات لا قيمة لها فى تقدير حالة الأمة اقتصادياً ، لأنها توضع بالنسبة المئوية إلى الإنتاج السابق ، فلا تبين مقدار الإنتاج الفعلى . ولهذه الأرقام مغزى سياسى هو حرص الشيوعيين على أن يؤكدوا

للشعب أن لا تقدم إلاّ بواسطة الحكومة . كما يقصد منها إقناع شعوب آسيا المفتقرة إلى الغذاء بأن لا سبيل إلى الخلاص إلا باتباع الخطة الشيوعية .

وأذكر فى هذا الصدد أن « بنج تشيه » رئيس بلدية بكين ، وهو يحتل مركزاً هاماً فى حكومة الصين ، كان قد زعم أمام الوفود الأجنبية أن الغذاء يفيض عن الحاجة ، وأن الصين التى ظلت ٧٣ سنة عاجزة عن إعالة نفسها بنفسها ، ارتفع إنتاجها فى مدى عامين وازداد ٢٢ فى المائة عما كان عليه عام ١٩٤٩ بحيث أصبحت تصدر الأغذية .

ولقد كان بودى أن أصدق ذلك الزعم لأنه ينطوى على أمل كبير للجياع فى آسيا . ولكنى تذكرت ما قاله نان هان — تشن (مدير بنك الشعب) وهو يتحدث عن مكافحة التضخم ، من أن الإنتاج الزراعى قد هبط بنسبة ٣٠ بالمئة خلال فترة التضخم . ولذلك فإن زيادته بنسبة ٢٢ فى المائة بعد استقرار النقد ليست شيئاً ذا بال . إن نان هان — تشن يدرك حقيقة الواقع ، لأنه مدير مصرف الشعب . وهو يقول إن محصول الحبوب الغذائية عام ١٩٥١ كان ٩٢ فى المائة من محصول عام ١٩٣٦ ، ويعتبر محصول ١٩٣٦ رقماً قياسياً وهو يشمل محصول منشوريا . ومع ذلك اضطرت الصين عام ١٩٣٦ إلى استيراد الحبوب الغذائية ، وكان تقدير محصول كل من الحبوب عام ١٩٥١ كما يأتى : —

أرز : ٩٩,٤ فى المائة بالنسبة إلى عام ١٩٣٦

قمح	: ٨٨,٥	فى المائة بالنسبة إلى عام ١٩٣٦
قطن	: ١٣٣,٠	» » » »
تبغ	: ١٣٠,٥	» » » »
قنب	: ٢٢٧,١	» » » »

وتدل هذه الأرقام على أن الحبوب الغذائية لم تزدد زيادة تجعلها تفيض عن حاجة البلاد بحيث يمكن تصديرها . بل إنها تدل على أن الحبوب نقصت إذا وضعنا نصب أعيننا زيادة السكان بين ١٩٣٦ و ١٩٥٢ . فكيف يمكن للصين إذن أن تصدر الحبوب الغذائية ؟ فى ١٩٥١ صدرت إلى الهند نصف مليون طن من الأرز والذرة . وصدرت منهما ١٥٠,٠٠٠ طن عام ١٩٥٢ . وقد كان هذا التصدير مناورة سياسية على حساب المستهلك الصينى ، إذ أذيعت من هونج كونج أنباء مفادها أن الصين تصدر أغذية إلى الهند بينما المجاعة تفتك بشعبها .

والحقيقة هى أن ما تصدره الصين هو فائض ما تختزنه الحكومة من إيراداتها العينية ، تلك الإيرادات التى تمون بها السكان غير الزراعيين فى مناطق المدن . فقد اضطرت عام ١٩٥٠ مثلا ، إلى تموين نحو ٨٠ مليوناً من السكان . واستطاعت أن تخفف من عبء واجباتها بتخفيض المنطقة الجائعة التى كانت نحو ٢٠ مليون فدان عام ١٩٤٩ ، إلى ٧ ملايين فدان عام ١٩٥٢ . وساعد على ذلك التقشف فى العيش والسيطرة على

الاستهلاك .

ولقد أقنعنى ما شاهدته فى القرية التى زرتها أن الفضل الأكبر فى زيادةالإنتاج إنما يعود إلىما يسود الصين الآن من حالة طبيعية ، يتبدى فيها السلام والنظام . وقد انتفى قطاع الطرق ورجال العصابات المسلحون ، والجمعيات السرية الإرهابية . كما استقرت حياة الفلاح ، وأخذ يشعر بشىء من السعادة ، إذ أصبح يملك أرضاً ويحظى بقسط أوفر من الغذاء والكساء . وهو لم يعد يخشى الآلهة التى كان يعبدها ، ولم يعد يصدق أنه كتب عليه الفقر . وما حرمه إياه بوذا أجيالا أصبح الآن ملك يده بفضل جهوده . وقد نبذ الهياكل والأصنام القديمة ، واستعاض عنها بالولاء للحزب الشيوعى .

ولم يحتج هذا الانقلاب إلى أكثر من وضع قانون إصلاح الأراضى . فقد وقعت حقائق الإصلاح الملموسة من نفسه ، فأزال الأصنام وجعل من هياكلها مدارس ومراكز اجتماعية . وقد زرت هيكلا قديماً فى بلدة تاتنج ، فوجدته مهجوراً لا يزوره أحد من الناس إلا الكهنة القلائل الذين يقيمون فى ديره . وقد قال لى هؤلاء الكهنة إنهم يعيشون من ريع القسيمة الصغيرة التى تركت للهيكل ومن الراتب الذى تقدمه الحكومة . وقد أبقى الشيوعيون على هيكل تاتنج لأنه أثر قديم يرجع عهده إلى القرن الحادى عشر . ورأينا فيه بقايا البخور المحروق ، وعجبنا من أنه لا يزال يسمح

بعبادة بوذا فسألنا الكاهن عن عدد من يتعبد فى الهيكل من الناس ، فأخذ يشكو بصوت خفيض من قلة المتعبدين قائلا إنهم يخافون من السلطات المسئولة . وما إن رأى المترجم مقبلا حتى قال إن أحداً لا يأتى قط ، وإن البخور المحروق كان من بقايا صلواته هو ! !

وكذلك قضى إلغاء الإقطاعية على التقليد الذى كان يفرض طاعة الوالدين وسلطة الرجل على المرأة . فانضمت المرأة إلى صفوف مكافحة الأمية ، وصارت تباهى بمعارفها كالأطفال ! وكان « ماو » قد تكلم فقط عن استعادة الإنتاج فى المناطق الريفية ، غير أن إصلاح الأراضى ادعى أن غايته هى تنمية الإنتاج تمهيداً لتصنيع البلاد . وقد حاولت أن أبين للصينيين من إحصاءاتهم أن ذلك غير ممكن ؛ فقد أحسست أن الإصلاح الزراعى حركة سياسية ثورية وليس ثورة اقتصادية ، وأن المزارع التعاونية لها حدودها ، لا سيما فى الجنوب حيث المزارع صغيرة جداً . ثم إن الفلاح الصينى شديد التعلق بأرضه وقد اعتاد العمل الفردى ، مما يجعل الانتقال إلى الزراعة الجماعية التعاونية بطيئاً وصعباً . ولا شك أن زعماء الصين يدركون سيئات المزارع الصغيرة ، ولكنهم يأملون فى أن يقدر الفلاح قيمة الزراعة الآلية فيقبل مبدأ المزارع الجماعية .

حقيقة أن إصلاح الأراضى لم يحقق غايته الاقتصادية ، بيد أنه حقق ثورة اجتماعية ، وذلك بإشباع رغبات الفلاح الأولية . قد لا يكون

فى الوقت الحاضر ما يكفى لإشباع جميع رغباته وسد جميع حاجاته ، ولكن حلمه القديم العهد قد تحقق ، فأكسبه ذلك إيماناً جديداً ، هو القوة الكامنة وراء حكومة « ماو تسى تونج » .

ويحلو لى أن أذكر فى هذا الصدد أن كنفوشيوس الفيلسوف الصينى سئل ذات مرة عن الأمور الثلاثة الحيوية للحاكم . فأجاب : كفاية الغذاء ؛ وكفاية القوة العسكرية ؛ وكفاية ثقة الشعب بالحاكم . فسئل : أى الثلاثة تحذف إذا لم يمكن ضمانها جميعاً ؟ فأجاب : تحذف القوة العسكرية . فسئل : وأيهما تحذف إذا اقتضى الأمر الاكتفاء بشىء واحد ؟ فأجاب : ليفقد الشعب طعامه ، ولكن ليحتفظ بثقته .

والشعب الصينى يحتفظ بتلك الثقة ، — فى الوقت الحاضر على الأقل ! !

الفصل الثانى

استعراض القرى



زرت قريتين كان الإصلاح الزراعى فيهما قد أدى إلى تطورات اقتصادية مختلفة ، إحداهما قرب بكين ، والأخرى قرب موكدن . ويتضح من أخذى لزيارتهما فى كل من الرحلتين ، أنهما مخصصتان لاستعراض الاقتصاد الجديد .

كانت القرية الأولى تمون العاصمة بالخضروات . وكانت الطريق إليها كثيرة الغبار ؛ وتجمع أهلها لاستقبالنا وصفقوا لنا ترحيباً كما هو شأن الصينيين . ثم التفوا حولنا وهزوا أيدينا مغتبطين بمقدمنا . وتباهى الأطفال بربطات الرقبة الحمراء التى هى شعار الرواد الأحداث . ولم يسمح لنا بالتريث بين الفلاحين ، بل ساقونا إلى مكتب جمعية الفلاحين . وتفرق

الحشد كما لو كان بتدبير سابق ، ولم يبق سوى بضعة أطفال طلبنا منهم أن يغنوا ويرقصوا قليلا ، ولكنهم ما لبثوا أن أرغموا على الانصراف بدورهم .

ولعل أطفال الصين هم أكثر أطفال العالم جاذبية . فإن وجوههم المليئة وأنوفهم المفرطحة وأعينهم المبتسمة تخفى ما بأجسامهم من سوء تغذية أو سوء صحة . ولست أدرى ما الذى أفزعهم فأرغمهم على الاختفاء ! ولعل التحدث مع الأجانب كان محظوراً عليهم .

وأعود إلى القرية الأولى ، فأقول إنها كانت تضم ٤٣٠ عائلة ، يبلغ عدد أفرادها ٢٠٥٠ ، يملكون فيما بينهم ٢١٩٠ مو (أى ٣٦٥ فداناً) . وكان فيها قبل إصلاح الأراضى ٢٠ عائلة من كبار الملاكين لهم ١٤٣٥ مو من الأرض . ونالت القرية قرضاً من الحكومة قدره ١٢٦ مليون يوان . (والمليون يوان يساوى ٤٥ دولاراً أو ١٦ جنيهاً) . وقد شاهدت معالم الإصلاح فى البيوت التى زرتها ، كما رأيت فى بعضها ساعات حائط أو أوانى خزفية وغير ذلك مما آل إلى الفلاحين من جراء مصادرة أملاك الإقطاعيين ومقتنياتهم .

وزعم موظفو القرية أن الإنتاج ازداد لأن الفلاحين أخذوا يجدون فى العمل ، وقدمت لهم تسهيلات جديدة للرى . واشترت القرية عدداً من الحيوانات ، وحفرت آبار جديدة . وأنشئت مدرسة ابتدائية ذات أربعة فصول يتعلم فيها ١٦٠ طفلا ، كما يحضر فصول مكافحة الأمية ٤٢٠

من البالغين ، وفى أثناء حملة وطنية تبرع الفلاحون بمبلغ ٥٤,٥ مليون يوان لصندوق مساعدة كوريا وصندوق مقاومة أمريكا . وقد بلغ دخل الأسرة الواحدة فى العام ٢٠ مليون يوان .

ولقد كان من الصعب علينا أن نصدق ذلك الرقم ، فكثيراً ما يقرأ الصينيون المئة ألف مليوناً ، وقد يكون العشرون مليوناً مليونين فقط ، وهذا أقرب إلى الحقيقة ! !

وكان معظم البيوت مؤلفاً من غرفتين تقطنهما عائلتان . وكان فى الغرفة الأولى فرن من الفخار لكل من الأسرتين . وحوت الغرفة الثانية مصطبتين عليهما حصر منسوجة من القش ، وقد وضعت مقتنيات كل أسرة على مصطبتها . وكان التحسن فى مستوى المعيشة واضحاً ، أما ادعاء زيادة الإنتاج فمشكوك فيه ، لأن الإنتاج الزراعى فى الصين كان قد انخفض بنسبة ٣٠ فى المائة خلال الحرب ؛ وسجلات الصين الجديدة لا ترجع فى تاريخها إلى ما قبل عام ١٩٤٦

* * *

وزرت قرية أخرى تبعد ١٥ ميلا عن موكدن فى المنطقة الشمالية الشرقية التى كانت أول ما طبق فيها نظام إصلاح الأراضى ، ولذلك كان من المتوقع أن نجد فيها أفضل النتائج . وقد رأيت بالفعل تطوراً كبيراً فى مدى الأشهر السبعة التى وقعت بين الرحلتين . واستقبلنا الفلاحون

بحماس كالعادة ، ولكنهم فى هذه القرية ظلوا معنا واختلطوا بنا بحرية طيلة مدة الزيارة ، وقد ارتدى كثير من الرجال القمصان البيض والسراويل الزرق . وهم أطول من فلاحى الجنوب قامة وأشد بأساً . وقدمت لنا النساء البيض وعرانيس الذرة المشوية والفستق المسلوق ، وأصررن علينا إما أن نأكلها وإما أن نحملها إلى بلادنا .

وتسمى هذه القرية كاو كانج [١] نسبة إلى اسم حكومة المنطقة الشمالية الشرقية . واجتمعنا فى الرحلة الأولى فى ساحة أحد الأكواخ حيث جلبت المقاعد ، فلم يتمكن الموظف من تزويدنا بأرقام الإنتاج منذ التحرير إلا بسؤال الفلاحين عن ذلك .

أما فى الرحلة الثانية ، فقد اقتادونا إلى مكتب جديد البناء يبعد ميلين ، وهناك أعطونا كافة « المعلومات » . وفى هذه القرية ١٦٨ عائلة يبلغ عدد أفرادها ٧٤٢ . ولها من الأرض ٢٤٧٣ مو . وكان يملك القرية قبل التحرير عشر عائلات ؛ لم يبق منها سوى عائلتين تملك كل منهما مثل ما تملك أى أسرة من الفلاحين . وبدا هنا أيضاً أن حالة الفلاح قد تحسنت ، ولكن لم يقم أى دليل على ازدياد الإنتاج . وكانت القرية

---

(١) كان كاوكانج أحد نجوم الحزب الشيوعى الصينى اللامعة ، ولكنه إذ انتقد دكتاتورية حكم ماو تسى تونج وطالب بمنح الشعب الصينى مزيداً من الحرية، طرد من الحزب واضطر بسبب الاضطهاد الذى تعرض له إلى الانتحار فى عام ١٩٥٥ .

فى زيارتى الأولى تقوم بتجربة جديدة ، إذ ألف بعض أهلها جماعة لتبادل المساعدة ، بينما ألّف الآخرون جماعات لتبادل العمل . وقد انضم إلى هذه الجماعات ٤٠ رجلا و ١٣ امرأة من أربعين عائلة . ففى جماعة المساعدة المتبادلة كانت الأيدى العاملة والحيوانات والأدوات الزراعية تقدر بحسب السن والمقدرة والكفاءة ، وتدفع الأجور وفقاً لذلك . أما فى جماعات العمل المتبادل ، فكان العمل يقدر بالتساوى . وعلمت أن السبب فى انضمام الفلاحين إلى هذه أو تلك كان عجزهم عن فلاحة أراضيهم بما لديهم من الأيدى العاملة فى الأسرة ، لا نمو الروح التعاونية بينهم كما زعم الموظف الحكومى . وشاقنى أن أتفهم نفسية الفلاحين مباشرة ، فطفقت أسألهم واحداً واحداً . وكثيراً ما كان يتدخل الموظف أو المترجم فى الأجوبة فتحدث بينهم المشادات والمناقشات وأنا صامت أنتظر الجواب . ولا سبيل إلى الاطلاع على الحقيقة فى بلد شيوعى إلا بتكرار الأسئلة ذاتها على أكبر عدد من الناس . وقد تكون الأجوبة متماثلة ، ولكن الذكى يستخلص منها أكثر مما يستخلصه من التقارير الرسمية الببغاوية ! ! . وبهذه الوسيلة تبينت أن بعض العائلات عجزت عن فلاحة نصيبها من الأرض لكثرة عدد الأطفال فيها ، وخاصة أن لكل منهم حصة ؛ ولعدم تمكن النساء من المساهمة فى العمل إما لضعفهن وإما لانشغالهن بالأطفال . وعلمت أيضاً أن الأعضاء فى جماعة تبادل المساعدة لم يجمعوا محاصيلهم ومنتجاتهم

معاً ليقتسموها فيما بعد حسب أثمانها المقدرة . بل كان كل فلاح يدفع أجرة المساعد التى قدمت إليه من محصوله الخاص . وكان الموظف الحكومى قد زعم بأن هناك شركة ، ولكن الفلاحين أنفسهم كذبوا ذلك ! !

وكانت الأشهر السبعة الفاصلة بين الرحلتين قد بدلت وجه القرية ، إذ انتقلت من جماعات لتبادل المساعدة إلى تعاونيات من أرقى طراز ، وامحت الحدود بين مزارع صغيرة وأصبحت مزرعة واحدة مساحتها ٤٥٠ فداناً . وكانت الجمعية التعاونية تعترف بملكية الأراضى الخاصة ، ولكن تحت إدارة موحدة ؛ وهى التى تقرر نوع المزروعات فى كل قطعة من الأرض وتوزع الإنتاج على المساهمين بعد حسم الضرائب والبذار للموسم التالى . وكان التوزيع على أساس ٦٠ فى المائة للعمل و ٣٠ فى المائة للأرض و ١٠ فى المائة للحيوانات والأدوات . وبذلك تمكنت القرية من توظيف المال فى شراء أدوات زراعية حديثة بالتقسيط ، فتدفع الجمعية التعاونية ٢٥ فى المائة من الثمن فى السنة الأولى ، و ٣٥ فى المائة فى السنة الثانية ، والباقى فى السنة الثالثة . وأرونى الأدوات التى تملكها القرية ، وقليل منها ما كان حديثاً بالمعنى الصحيح . وخيل إلى لحظة أنها قد تكون جلبت خصيصاً لنراها ، وقد أكون مصيباً أو مخطئاً فى هذا الظن . ولكن مما لاشك فيه أن المزرعة كانت وحدة لا أثر فيها لحدود فاصلة بين قطع الأرض الصغيرة ، وإن « كاو كانج » كانت القرية الوحيدة التى اصطنعت النظام

التعاونى فى تلك المنطقة .

ولا شك أن ذلك كان تقدماً فى الاتجاه الصحيح ، ولو أنه سيخلق مشاكل عديدة فى العمل والاستخدام عندما تنتشر هذه الحركة فى البلاد . فلا بد من توسيع المزارع إذا أريد تطبيق الأساليب الحديثة لزيادة الإنتاج. ولكن أخشى ما يخشاه المرء فى الصين هو المضى فى تجزئة الأراضى من جيل إلى جيل ، فتقل المحاصيل والإيرادات ، إلا إذا خفت وطأة السكان الذين يعتمدون على الأرض. ولذلك تعمل الحكومة على جعل الفلاح يؤمن بالنظام التعاونى . وسيتبع ذلك تطبيق النظام الجماعى حالما تشعر الحكومة بأنها ملكت من السيطرة على الفلاح ما يمنعه من الثورة . وقد قال «بنج تشن» فى هذا الصدد : لن يتم النظام الجماعى إلا عندما يصبح الفلاح مستعداً له ، وإلا ثار على الحكومة . ولقد بلغت عملية التجزئة حدها ، وأصبح النظام الجماعى ضرورة اقتصادية .

لم يفتأ أهالى قرية « كاو كانج » التعاونية يعلنون تعلقهم بقطع الأرض الصغيرة الممنوحة لهم ، وبما يملكون من غرف وخنازير ودواجن . وتحدثوا عما كسبوه من مال مقابل قيامهم بأعمال إضافية . وقد رووا لى أن بعضهم بعد أن تسلم سندات التملك ، كان ينهض ليلا ليلقى نظرة على أرضه مغتبطاً بحيازتها ! ! . وزرت أسرة من ثلاثة أفراد تقيم فى كوخ ذى غرفتين مع أسرة أخرى . كان الوالد رجلا قصيراً خشناً متغضن الوجه . ولم يكن يملك

أرضاً قبل الإصلاح ، فأصبح بعده مالكاً وفلاحاً نموذجياً . وكانت زوجته ترتدى الثياب الزرق وقد قصت شعرها أسوة بنساء الصين اللواتى تحررن . وكان الزوج يرجع إليها لتوكيد ما كان يحدثنا به ، فتصححه أحياناً وتعارضه أحياناً ، وبدا أنها أعلم منه بشؤون الإيرادات والنفقات ! ! وطفق الزوج يحدثنا عن نجاحه فى أعماله ، وكيف أنه عضو فى جماعة تبادل المساعدة ، فاستطاع أن يقوم بأعمال إضافية ربح منها ٣ ملايين يوان . فقلت له : إنك أصبحت الآن عضواً فى جمعية تعاونية ، فهل لا تزال الأرض ملكاً لك ؟ فنظر إلى زوجته ودارت بينهما مناقشة اشترك فيها المترجم . وأجاب بعد لأى : سيكون محصولى أكبر . ولا تزال الأرض ملكى . فقلت : قد يضطرك النظام التعاونى إلى زراعة محصول آخر ، فالجمعية التعاونية هى التى تعين نوع المزروعات ؛ فهل تعتقد آنذاك أن الأرض لا تزال ملكاً لك ؟ فنظر إلى فى حيرة ثم قال : لقد ساهمت فى المزرعة التعاونية بأرضى وعربتى . إن الأرض ملكى وكذلك العربة . وقد قيل لى إنى سأنال حصة مقابل العربة ، وبذلك ستكون حصتى أكبر من حصتى فى العام الماضى . فقلت : أتحب أن تشتغل لغيرك ؟ لما كنت فى جماعة تبادل المساعدة كنت تنال أجرة على اشتغالك لغيرك ، وظلت الأرض لك . أما اليوم فأين حدود أرضك ؟ فأجاب : كان تبادل المساعدة حسناً ولكنى سأربح أكثر من المزرعة التعاونية التى وظفت فيها أرضى

وعر بتى . إن الأرض ملكى .

إنه متحمس للعمل ، فخور بما طرأ على معيشته من تحسن ، ولكنه مصمم على الاحتفاظ بالأرض التى اكتسبها بعد أجيال من الشقاء . وتدرك الحكومة هذا التصميم وتحسب له حساباً فى برنامج المزارع الجماعية . فهل ستتمكن فى المستقبل القريب من إقناع الفلاح بالتنازل عن أرضه فى سبيل الصالح العام ، أم هل ستضطر إلى استعمال القوة والعنف ؟

الفصل الثالث

مشروع نهر هواى



جرى القارب يتهادى
فوق صفحة نهر هواى ،
وهو أحد أنهار ثلاثة
تجرى فى أواسط الصين ،
فتروى سهولها الشاسعة ،
وكثيراً ما تجلب الغم
لملايين البشر الذين
يعتمدون عليها . أما النهران الآخران فهما « يانجتسى » « والنهر الأصفر » .

كان القدماء الذين عاشوا فى تلك المنطقة أجيالا يعرفون فن الحياة وسط الفقر والشقاء . أما الآن فإن ريحاً جديدة تعصف بهم ، فتجمع غبار الأجيال وتكشف عن النفس البشرية الباحثة عن السعادة . ولقد لمست همة شعب يشق لنفسه سبيل حياة جديدة ، وأدركت حماس شباب يسير على توقيع أناشيد جديدة ، ويعقد العزم على العمل والإنشاء .

ولكن ، نحو أى هدف ؟ هل التحرر من الجوع هو كل ما يحتاجه المرء ؟ ما قيمة معدة « شبعانة » إذا لم يستطع العقل أن يسمو ويحلق فى فضاء طليق مترامى الأطراف ؟ لا أستطيع الجواب ، لأنى لم أعرف الجوع؟ ولكنى أعلم أن الجوع هو شريعة الغاب ! !

هنا على نهر هواى بعيداً عن بكين ، يرى المرء بعض الملايين الذين يؤلفون هذه البلاد العظيمة ، ويطلع على شىء مما يلم بهم وهم يقيمون فى سفنهم النهرية أو يكدون فى حقولهم الصغيرة . إنهم يكدحون كما لا يكدح أى شعب آخر فى العالم . تلك هى الصين على حقيقتها ، وستظل كذلك ما لم تنجح الثورة فى تحرير الشعب من نير الفقر . لقد ظل الفلاح الصينى أجيالا ينوء بأعبائه دون أى أمل فى زحزحتها . وكانت التربة خصبة ، والأنهار الجبارة تجلب له الغذاء وتتحداه . وكان يعيش فى عزلة عن بقية الدنيا ، فركد المجتمع ،وتشبث الناس بالماضى وتقاليده من عبادة الأجداد والتقوى البنوية وطاعة الحاكم حسب تعاليم كونفوشيوس . ولم تتمكن البوذية التى دخلت البلاد فى القرن الرابع من تغيير حياة الشعب . بل تحول الأمير بوذا التقى إلى إله يعزز التعاليم الكنفوشية التى حضت الناس على تقديم القرابين على مذابح الأجداد . وأدمن الشعب على تقاليده وعاداته البالية رازحاً تحت نير الإقطاعيين الذين استأثروا بالسلطة السياسية .

ولكن الصين الجديدة غيرت كل هذا . لقد تحرر الفلاح من أسار

الماضى ، وأصبح فخوراً بقطعة الأرض الصغيرة التى يملكها، يسير رافع الرأس مشرق الوجه . وتشاركه زوجته وابنته هذه الغبطة ، فلم تعودا بحاجة إلى التوارى عن نظرات السيد الإقطاعى الشهوانية . ولم يحرق البخور فى الهياكل أمام صنم بوذا ومن حوله الكهان بثيابهم الزعفرانية اللون . وبرزت الصين الجديدة بفضل رجال استطاعوا تكسير قشرة الأجيال الصلدة . أما تعلق الصينى بأرضه ، فمن السهل إدراك أسبابه . إنها عنده بمثابة رمز حياته وأمله ، يتشبث بها حرصاً على الحياة وخشية من الموت . إنها عنده كل شىء وغاية كل شىء . لقد تبدلت حياته ، ولكنى أشك فى إمكان تغيره هو بحيث يدرك حقيقة ما يجرى خارج حدود قريته . إنه ما فتئ يعيش ليومه ، وما كان ليثق يوماً بالغد الذى يعده به السياسى أو الكاهن . إنه يحب العزلة ، فماذا يبغى بعد أن ظفر بضالته المنشودة ؟ قال أحد شعراء الصين قبل أربعة آلاف عام :

من مطلع الفجر
إلى غسق المغيب
أكد وأكدح
أفلح حقلى
وأكسب عيشى
فماذا يهمنى من يحكم البلاد

إذ تركت أعيش فى سلام ؟

لقد ترك الفلاح أجيالا تحت رحمة الإقطاعيين . أما اليوم فلا يسعه أن يظل فى عزلة عن المجتمع الذى يسعى حكامه الجدد إلى إنشائه . فهم يدعونه إلى السير فى المواكب ، والتلويح بالعلم الأحمر ذى النجوم الخمسة ، وتعلم واجباته كترس فى عجلة الشيوعية التى أخذت تدور . لقد رأيته يسير مع أفراد أسرته الساعات الطوال ينشد نشيد « ماو تسى — تونج وستالين » ، يحمل ما لديه من أوراق النقد القليلة ليتبرع بها فى حملة مساعدة كوريا ومقاومة أمريكا ، اعترافاً بجميل من وهبوه أرضاً . ولقد تنكب السلاح متطوعاً فى جيش التحرير . وكلما نظر إلى حقله ، التقط مدرة وأخذ يتلمسها بشغف وابتهاج . إنه مستعد للقيام بأى عمل للذين ردوا إليه أرضه . ولكن إلى متى يدوم هذا الاعتراف بالجميل ؟

* * *

جئت إلى نهر هواى لأشهد العاطفة التى حركت أكثر من مليونى رجل وامرأة إلى التقدم للعمل فى مشروع حيوى لسكان ذلك الحوض . إنه مشروع لترويض الأنهر وكبح جماح فيضانها . وكان معنا فى الزورق النهرى نائبة رئيس المهندسين ، وهى مدبرة المشروع بأجمعه ، ووزيرة الصحة ووكيلة وزير العدل وغيرهما من الشخصيات النسائية اللامعة ، وكلهن بالألبسة القطنية الزرق الرخيصة ، وقد سرحن شعورهن إلى الخلف فى

بساطة ، وخلت وجوههن من أى أثر للزينة والتبرج ، وبدا عليهن الجد والرزانة . ومثل هذا يقال عن المترجمات الثلاث اللواتى أرسلتهن وزارة الخارجية لمرافقتنا . ولا أزال أذكر المترجمة التى رافقتنى فى زيارتى الأولى ، فقد كانت جد رزينة ، لا تبتسم ولا تبالى بالثياب الفاخرة ولا بأسباب اللهو والتسلية . فلما سألتها إن كانت لا ترغب فى الملابس الجذابة ، أجابت على الفور : سنرتدى الملابس الأنيقة عندما تستطيع بلادنا تيسيرها لنا . واتفق ذات يوم أن شعرت بشىء من المرح فأخذت أدندن بلحن راقص ، فحدجتنى بنظرة قاسية وذكرتنى بأن الصين لا تستسيغ المشاعر البرجوازية . ولم أعجب لأنه لم يبق فى الصين أى أثر لأنوثة المرأة ورقتها ، فالثورة يجب أن تحجر حتى أرق القلوب ، وإلا فشلت !

أما هذه السيدة المهندسة ، فقد كانت ذات شخصية قوية ، تسيطر بها على آلاف الرجال وتنظمهم . كان « اسمها تشين تشن — ينج ، وكانت تشعر بقوة نفوذها ، إذ التحقت بالحزب فى شنغهاى عام ١٩٤١ عندما كانت طالبة ، ففرت إلى المنطقة المحررة فى العالم التالى لتقاتل اليابانيين . وفى تلك الرحلة الطويلة على النهر ظلت يومين كاملين تسيطر على مشاعرى بقوة صوتها الخشن الأجش . وكانت مسترجلة ، تنتعل حذاء كبيراً ، وبنطلوناً أزرق منتفخاً حول وسطها قصيراً عند رسغيها . ولا شك فى أنها كانت ذات منزلة واحترام ، فالتف الرجال حولها يصغون إليها فى إعجاب

وتزلف . ولم تكن عليها مسحة من الجمال ، وإنما يلفت الانتباه إليها نتوء عظام خديها وسبط شعرها وبروز ثناياها وسعة فمها . وقد أسرتنى بقوة إيمانها الشيوعى ، فبدت لى أكثر من امرأة عادية مهندسة . قالت : ظل أهالى هذه المنطقة تسع سنين يعانون الفيضانات فى حكم الكومنتانج الرجعى ، فهلك خمسة ملايين منهم ، ولم يبذل أى جهد حقيقى لدرء تلك الكوارث إلا تحت قيادة «ماو تسى تونج» والحزب الشيوعى. وفى عام١٩٣٨ أتلف الرجعيون السدود على النهر الأصفر ، فغير مجراه وأخذ يصب فى نهر هواى ، فطغت مياه هذا النهر وأصبحت المنطقة بين النهرين أشبه ببحيرة كبيرة ! !

ولا شك أن مثل هذا التصريح المنافى للواقع ، من شأنه أن يثير فى الجهال والبسطاء كوامن البغضاء لمن يسمون بالرجعيين . ولكن ما أدهشنى كأن محاولة التأثير على الزائرين أيضاً ، ممن يتوقع أن يكونوا مطلعين على تاريخ الصين الحديث . وكثيراً ما سمعنا مثل هذا التحوير فى التاريخ ، ولذلك كان لا بد من التنبه والحذر دائماً لنكون حكماً صحيحاً على كل ما كان يقال لنا . كان قد وقع بالفعل ٩٣٥ حادثا من حوادث الفيضان والجفاف فى تلك المنطقة منذ القرن الرابع عشر . وكان الأهالى رغم ذلك يحبون نهر هواى ويسمونه « العذراء الفتية » ، ويتغنون به قائلين : « أينما ذهبنا ، ومهما ابتعدنا ، فلا مكان نظير هواى » . إنه يهيمن على مصير

خمسين مليون نسمة ، إذ أن حوضه أشد المناطق ازدحاماً بالسكان ، واستصلاح أراضيه يتيح للحكومة فرصة اكتساب ثقة الشعب ومحبته . وقد اغتنم الشيوعيون تلك الفرصة عام ١٩٤٩ عقب إعلان الجمهورية مباشرة .

ويكشف مشروع نهر هواى عما فى الصين الحديثة من قوة وضعف — قوة وفرة الأيدى العاملة ، وضعف الخبرة الفنية .

كان الفلاح الصينى يعمل عاماً بعد عام على صيانة شبكة السدود والترع . وكان النهر كلما تلفت سدوده يطغى على مجراه ويغمر السهول المحيطة ، فيقف الفلاح حائراً عاجزاً وقد أسقط فى يده ، إذ أن إصلاح السدود يتطلب تجنيد الملايين من أقرانه . ونجح الشيوعيون فى هذا ، إذ بثوا خمسين ألفاً من أعضاء حزبهم ومئة ألف من قادة الشبيبة لتجنيد الشعب وتحميسه . فعقدوا الاجتماعات ونظموا المواكب ، وأصعدوا على المنصات والمنابر شباناً من الفلاحين ممن كانوا ضحايا اليابانيين أو الإقطاعيين المحليين ، ليخطبوا فى الشعب ويذكروه بالأرض التى منحتها إياه الحكومة ، ويحثوه على التضحية قائلين « السعادة ثمرة الشقاء . . . وأكثر السعادة حلاوة ما كان نتيجة مرارة قاسية » .

هذا تشو — شان العامل الريفى المجتهد ، ذهب فى الشتاء الماضى مع بعثة للدعاية ، فجاب القرى المجاورة يجند العمال للمشروع . كان

يقول للفلاحين : « كنا فى الماضى ندفع الضرائب الباهظة ، ونعمل فى النهر لحماية أراضى الإقطاعيين . أما الآن فقد وهبنا « ماو تسى تونج » الأرض ، فصار من الواجب أن نعمل على حمايتها » . وهذه تشن شو – لنج ابنة فلاح فقير قتله اليابانيون لما كانت فى التاسعة من عمرها . وقد منحت قطعة أرض وفقاً لقانون الإصلاح الزراعى ، وأصبحت مهمتها تجنيد أهل قريتها من رجال ونساء . إنها وأمثالها من أكبر الدعاة للنظام الجديد . وبمثل هذه الوسائل تم تجنيد ٢,٢٠٠,٠٠٠ عامل للعمل فى الفترة الواقعة بين موسم الحصاد فى الخريف وموسم الزراعة فى الربيع . وكانوا يقدمون إليهم المأوى والعلاج الطبى مجاناً ، وأجراً يومياً بمعدل ٤ كاتى من الأرز (الكاتى يساوى نحو نصف كيلو) . وكان متوسط عمل الفرد الواحد فى العام ثمانين يوماً . وقد تمكنوا فى العامين الماضيين من إعادة بناء ١٣٧٠ ميلا من السدود ، وجرف ٥٤٠ ميلا من مجرى النهر .

لكن هذا وحده لا يكفى ، بل لا بد من صيانة المياه والسيطرة على تصريفها . فإن لنهر هواى من الروافد نحو مئتين ، تقتضى ٢١ خزاناً تبنى فى الجبال عند منابعها . وقد أنشئ سد فى الوادى الأوسط لتخفيض السرعة من ١٣,٠٠٠ إلى ٦,٥٠٠ متر مكعب فى الثانية . ويتناول المشروع إنشاء سدود أخرى وبوابات تصريف قنوات مقبوة ، كما يحتاج إلى آلات حديثة وخبرة فنية . ويقال إن هناك نحواً من ١٦,٠٠٠ من العمال الفنيين ،

بما فيهم نظار العمال والطلاب والمهندسون يعملون فى المشروع مع نحو ٤٠,٠٠٠ موظف إدارى . ومن الصعب تصديق هذه الأرقام الضخمة ، إذ ليس فى الصين عدد كبير من المدربين بحيث يمكن استخدام مثل هذا العدد فى مشروع واحد ؛ كما أن من عاداتهم هناك أن يعتبروا « العامل النموذجى » بمثابة مهندس ، وفى أواخر عام ١٩٥٠ اختير ٢٤,٦٧٢ عاملا نموذجياً من بين المشتغلين فى مشروع هواى . وهذه تشن — ينج نائبة رئيس المهندسين ، ليست مهندسة بالمعنى الصحيح . لقد كانت طالبة فى السنة الثالثة فى كلية الهندسة فى جامعة شنغهاى لما فرت إلى المنطقة المحررة . وقد سحرتنى بحديثها عن المشروع الكبير ، ولم أفطن إلى أنه كان حديث دعاية أكثر منه حديث حقائق . نعم لم أدرك ذلك إلا بعد أن شاهدت سد يونجهوشى الذى زعموا أنه السد الرئيسى فى حوض هواى .

صادفنا فى تلك الرحلة النهرية كثيراً من الخيبة ، ولكنها كانت مفعمة بالعبر لهندى مثلى . إن مشروعاً يرمى إلى رى نحو ٨ ملايين فدان ونفع ١٧ مليون نسمة ، لا بد أن يكون ضخماً هائلا يحق للصين الجديدة أن تتبجح به . ولذلك شاقنا أن نراه ، لعل تطبيقه يمكن فى الهند . وقيل لنا إنه لم يسبق أن سمح لوفد آخر بالتغلغل مسافة مائة ميل على نهر لمشاهدة المنشآت . ولكن هذه الرحلة الطويلة الشاقة لم تأت بالفائدة المتوخاة . ومررنا بعدة قرى لم يبد فيها أى أثر للنشاط الهائل الذى توقعناه . وبدا

كأن العمل فى السدود قد انتهى . ورأينا أحياناً موكباً من الأطفال يحملون الأعلام الحمر دون إنشاد أو هتاف . ولم نسمع رنين الصنوج ولم نشاهد رقصة يانج ــ كو طوال الرحلة .

كانت رقصة يانج ــ كو رقصة ريفية قديمة ، أحياها « ماو تسى تونج » وشجعها ، فشاعت فى المدن والقرى . وكانت فى الأصل رقصة شعبية يرقصها الرجال والنساء والأطفال فى موسم الحصاد ، على توقيع الطبول والصنوج . ومن أغانى تلك الرقصة ، الأغنية التالية :

حصاد كل عام ، ولكن كل عام لا شىء

واستدانة كل عام ، وكل عام يبقى الدين

أكواخ متداعية ، وآنية مشوهة

نصف فدان من الأرض ، وخمسة قبور !

كان الفصل ربيعاً ، والفلاح مشغولا بحقله عن الرقص . ولم أشاهد سوى كراكة قديمة الطراز تجرف الطمى من النهر . ومع ذلك ظللت أعلل النفس بالآمال ، فقد نجد فى سد يونجهوشى شيئاً من معالم النشاط الذى أهاب بالملايين إلى محاولة تذليل الصعاب بالأيدى المجردة . مررنا بعدد من القوارب الصينية تسير فى النهر على غير هدى . إنها مساكن عدد كبير من أفراد الشعب الصينى ، وقد ينقضى زمن طويل قبل أن يجد هؤلاء منازل مستقرة ثابتة يأوون إليها . ووصلنا يونجهوشى ، فصدمتنا

الخيبة . ما أكثر ما قالوا عن ضخامة مشروع السد وإنجازه فى ثلاثة أشهر « بفضل قوة جماهير الشعب وذكائها » . لم نجد سداً بالمعنى الصحيح ، بل وجدنا حاجزاً بسيطاً يعترض مجرى النهر ، فيه عدد من بوابات التصريف لتحويل المياه إلى الحقول الواطئة التى سميت منطقة البحيرة . وكان من البساطة بحيث عزفت عن النظر إليه . لم أشاهد ملايين العمال الريفيين ، ولا ما يؤيد أنهم قد أقاموا هناك ثلاثة شهور . ولم يكن الجزء الثالث من الحاجز تاماً ، وبدت نظرية مكافحة الفيضان مجرد غمر الحقول الأقل خصباً فى أعالى النهر فى سبيل إنقاذ المنطقة الوسطى . واعترفت المديرة بذلك ، وهى تشعر بأن كرامتها قد جرحت ، ولكنها استدركت قائلة « إن بوابات التصريف وخلاطات الخرسانة وجميع ما احتجنا إليه من معدات ، من صنع الصين . ولقد أنفقنا من المال ما يساوى ثمن ١,٣٥٠,٠٠٠ طن من الأرز » . وأردفت أن العمل قائم فى منطقة أبعد فى أعالى النهر ، وكان على أن أذهب إلى هناك لأشاهد الصين فى إبان العمل .

وعلى رغم كل ذلك فإن الرحلة النهرية لم تذهب سدى ، إذ برهنت على أن نظام إصلاح الأراضى قد سهل بعض المشاكل التى تعترض مثل هذه المشاريع فى البلدان الأخرى ، من مثل مشكلة تعويض الفلاحين الذين أجلوا عن أراضيهم ، وإسكانهم فى أراض أخرى . كما أنها دلت على أن الصين اصطنعت الواقعية فى تنفيذ مشروعاتها ، فاكتفت بما لديها

من معدات وخبرة فنية . وقد استطاعت تجنيد ما لديها من الأيدى العاملة، ولولا ذلك لما استطاعت إنجاز المشروع فى المدة المقررة . بيد أنى لم ألمح تلك القوة الكامنة التى يقال إنها غيرت معالم هذا البلد القديم ، ولعل ذلك قد فاتنى ، إذ أنهم يدعون أن الفلاح بدأ يشعر بأنه إنما يعمل لنفسه ، وهذا شىء ضرورى يمهد السبيل إلى تصنيع البلاد . ولقد لمست هذا الشعور فى فلاحى القرى التى زرتها . إن الأرض فى نظر الفلاح رمز الأمل، والأمل حقيق بزحزحة جبال المصاعب التى تعتور الصين . بيد أن شهوة التملك الخاص من ناحية، والنزعة إلى الاشتراكية من ناحية أخرى على طرفى نقيض .

الفصل الرابع

العمال والنماذج



كانت ثورة الصين ثورة أرض ، ولذلك فمن المنتظر أن يستحوذ نفوذ الفلاح على الدولة . أما النظـــرية الشيوعية الخاصة بالصراع الطبقى فإنها تعتبر دكتاتورية الطبقة العاملة عنصراً لازماً في إنشاء صرح الاشتراكية . ولما كانت الطبقة العاملة فى الصين ضئيلة العدد لا تعدو مليونى عامل صناعى ، فقد وجب على الحزب الشيوعى أن يقويها لتصمد فى وجه الفلاحين الذين اشتهروا بالفردية والتحفظ . وهذا الصراع بين العامل والفلاح هو الذى سيقرر يوماً مستقبل الشيوعية فى الصين . والشيوعيون يدركون هذا التناقض ، ولذلك تركوا الفلاحين يملكون

الأرض ، وهم يعملون ببطء وحذر على استدراجهم إلى التعاون الزراعى . ولكنهم لا يفتأون يذكرون الشعب بزعامة الطبقة العاملة ، تمهيداً لإنشاء دكتاتورية مكشوفة .

وتستعين الحكومة بالحركة العمالية فى الصين ، التى يمدها الحزب بالمعونة المادية وكافة التسهيلات . وينتظر من الطبقة العاملة مقابل ذلك ، أن تنفذ سياسة الحكومة ، وأن تؤيد سلطة الحزب الشيوعى . وقانون النقابات يفرض عليها أن تراقب تنفيذ جميع القوانين والأنظمة الخاصة بالعمال . وهى تشترك فى الإدارة والإنتاج مباشرة عن طريق لجان إدارية داخل المصانع التى تملكها الدولة ، مما جعل جميع العمال تحت سلطة تلك النقابات ، ولو أنهم نظرياً أحرار فى الانتماء إليها . ولقد أصبح اتحاد عمال الصين يضم أكثر من ستة ملايين عامل فى مختلف الصناعات والبريد والبرق والنقل البرى والبحرى والتربية والتعليم والطباعة والصحافة .

وكانت اللجان الإدارية فى المصانع تستهدف منح العمال ما يسمى بحق الإدارة الديمقراطية . ولكن هذه اللجان فى المصانع المؤممة ترضخ لسلطة مكتب الحكومة لإدارة الصناعة ، ومهمتها الرئيسية زيادة الإنتاج . فهى تتسلم من مكتب الحكومة برامج الإنتاج وكافة الأوامر ، وما على اللجنة سوى ضمان تنفيذها ، ولا شأن لها بأجور العمال ورعاية مصالحهم . وكثيراً ما أرغم عمال مصنع تم تأميمه على قبول أجور أقل مما كانوا يتقاضون

قبل التأميم . وفى الصناعات التى ما زالت مستقلة ، تسبب هذه اللجان مشاكل ومنازعات ، وتثور فى جلساتها مناقشات لا نهاية لها ، فتحال على مكتب الحكومة الذى ينحاز دائماً إلى جانب العمال . فإذا استحوذت الدولة على المصنع ، تحوّل المكتب إلى جانب رب العمل ! !

أما حق الإدارة فى تعديل الأجور وتوظيف العمال وطردهم وتنظيم الإنتاج فإنه لا يوجد إلا على الورق ! . وما نقابات العمال إلا وكالات تنفذ الحكومة بواسطتها أهدافها السياسية والاقتصادية . وقد جاء فى دليل الصين الرسمى أن أعمال اتحاد عمال الصين تشمل : حملات للتنافس فى زيادة الإنتاج ، وتحسين وسائل السلامة والصحة الصناعية ، وإنشاء دوائر ثقافية ونواد لمحو الأمية بين العمال وتلقينهم نظريات ماركس ولينين وماو سى – تونج فى الثورة الصينية .

وقد استغلت السلطات الرسمية الحرب الكورية لإرغام العمال على إطالة مدة العمل ساعة أو أكثر فى اليوم . ويوم العمل هناك ليس ثمانى ساعات بل عشر أو إحدى عشرة ساعة . فمثلا عندما انطلقت صفارة انتهاء العمل فى مصنع السماد فى نانكين ، لم أر أحداً من العمال يخرج ليعود إلى بيته ، بل ظلوا داخل المصنع لبحث مشاكل الإنتاج ، كما قيل لى ! . وقد رأيت الكثيرين جالسين فى سهوم وضجر ، يتظاهرون بالإصغاء إلى الدروس السياسية التى تعطى فى جميع المصانع لمدة ساعة

صباح كل يوم ، وساعة أخرى بعد انتهاء العمل . وتشمل هذه الدروس القراءة ، وأصول زعامة الطبقة العاملة ، وإدارة الآلات . ولا شك فى فائدة مثل هذه الدروس ، لولا أن العامل يكون مرهقاً منهوكاً ، فتضيع عليه فائدتها .

وتزعم صحيفة « الصين تبنى » أن العامل أصبح يشعر بأنه سيد بلاده ، وبأن كل خطوة يخطوها فى سبيل زيادة الإنتاج إنما هى فى مصلحته ، ومن ثم تحول العامل من رجل مطواع خامل إلى إنسان نشيط ؛ هذا هو ما تقوله تلك الصحيفة الرسمية . أما الحقيقة فهى أن ما أهاب به إلى المبادرة كان الحملات المتوالية التى تعرض لها ، والتى أيقظت فيه الشعور بالصراع الطبقى . مثال ذلك الحملة التى استهدفت تصفية الرجعيين ، ثم حملة مساعدة كوريا ، وحملة مقاومة أمريكا ، وأخيراً حملات سن فن وو فن . . . فهذه الحملات ، بالإضافة إلى ما كمن وراءها من دوافع مالية واقتصادية ، بثت فى العمال الشعور بأنهم هم الطبقة القائدة فى الدولة ! !

وثمة طريقة أخرى لاستغلال الحركة العمالية فى سبيل زيادة الإنتاج ، وهى انتخاب عمال نموذجيين أو مثاليين فى كل مصنع ومؤسسة ، ومنحهم امتيازات كثيرة ، منها رفع أجورهم . ولا بد لزائر أى مصنع أن يلتقى بهؤلاء النماذج ، يعرضون أوسمتهم ويباهون بما قدموه من ابتكارات واختراعات ! ومن امتيازاتهم أن يُدعوا إلى بكين ، وأن يشتركوا فى المواكب والمناسبات

الرسمية . ولست أدرى ما الذى يؤهل العامل لأن يصبح نموذجاً ، إذ لم يقم أى دليل يبرر مزاعم تفوقه ! ! ولعل اقتناع العمال بأنهم لا يعملون للرأسماليين بل لأنفسهم ولصالح الأمة ، قد أطلق المواهب من أسارها ، فنبتت العبقريات فى كل زاوية وركن ! ! وهم يستعملون كلمة « اختراع » بحرية ودون تحفظ ، وقد رأيت مثل هذا الاختراع فى صناعة المنسوجات. كان هناك نقص فى الأقمشة ، فكان لا بد من خلق بطل قومى يحقق بعمله زيادة الإنتاج فى المستقبل ، فابتدعوا قصة البطلة هوتشين — سو التى قيل إنها نجحت فى تخفيض نسبة القطن التالف فى المغازل التى تديرها من ١,٥ فى المئة إلى ٠,٢٥ فى المئة ! ! ولذلك عممت طريقتها على جميع المغازل والمناسج . وتقول الجريدة التى نشرت النبأ ، إن الإنتاج السنوى يزداد بذلك ٤٤,٤٦٠ بالة من المغزولات أو ٦٤ مليون متر من الأقمشة ، دون إنفاق أية أموال إضافية على الآلات أو المواد الخام . وقد منحت البطلة كثيراً من الأوسمة وألقاب الشرف ، وأوفدت كممثلة للعمال إلى مؤتمر الشعب السياسى الاستشارى فى بكين ، وانتخبت عضواً مثالياً فى عصبة الشبيبة الديمقراطية ! !

واستطعت أن أرى نتيجة هذا الاختراع فى مصنع هنجوان للنسيج ، إذ زودنى مديره بالمعلومات التالية : كان المصنع قبل التحرير يستخدم ألف عامل ، فأصبح يستخدم بعد التحرير ١٨٠٠ ، يعملون فى نوبتين ،

كل منهما عشر ساعات ، وكان النول الواحد ينتج يومياً ٤٧,١٦ ياردة من القماش ، فأصبح ينتج ٨٣ ياردة ، وفى هذا ما يثبت تعادل كفاءة العامل الصينى وكفاءة العامل الهندى . ولما كان العامل فى دولة عمالية يعمل لنفسه وللدولة معاً ، فقد أحببت الاطلاع على الأجور فى مختلف الصناعات . ولشد ما كانت دهشتى عندما علمت أن النقابات لا تملك حق المساومات الجماعية مع أرباب العمل ، إذ وضعت الحكومة حداً أدنى للأجور يساوى تكاليف معيشة شخصين بالغين ، يدفع على أساس القطع المنجزة . ولم أستطع الحصول على معلومات توضح ما تشمله تكاليف المعيشة . ففى موكدن تدفع الأجور على أساس المطالب الضرورية مثل دقيق الأرز والزيت والقماش والملح والفحم . وفى مشروع نهر هواى كان يدفع للفلاح ٤ كاتى من الأرز بالإضافة إلى مأوى مجانى . ولكن قيل لى إن الفلاح يستهلك منها لطعامه ٣½ كاتى ، فلا يبقى إلا نصف كاتى ليقايضها بسلع أخرى ! ! وفى المصانع التى زرتها فى منشوريا كان العامل يتقاضى بين ٨,٥٠ دولاراً و ٢٥,٦٠ دولاراً فى الشهر ، بينما كان العامل النموذجى يتقاضى نحو ٤١ دولاراً . وكانت الأجور فى مصانع النسيج فى تينتسن تدفع بالذرة ، بمعدل ٢٨ دولاراً شهرياً ، وهذا يعادل ما يدفع لعامل النسيج فى الهند . أما فى الصناعات الثقيلة فى موكدن ، فالأجور منخفضة . وكلما تم تأميم أحد المصانع ، اضطرت النقابة إلى الموافقة

على تخفيض الأجور ، كمساهمة من العمال فى دعم الحكومة فى سياستها الاقتصادية . ومما لا شك فيه أن الأجور فى الصين ارتفعت فى مقدارها وقيمتها الحقيقية ، كما أن أنظمة تأمين العمال تنص على ضمان العامل عند الشيخوخة والمرض .

والإدارة مسؤولة عن دفع أجور المرضى ونفقات علاجهم . ويتقاضى العامل أجراً كاملا لمدة ثلاثة أشهر إذا أصيب بمرض أو ضرر من جراء عمله ، ونصف أجر إذا لم يكن مرضه مسبباً عن عمله . كما يتقاضى ثلث أجره أو نصفه من صندوق التأمين لمدة ٣ — ٦ أشهر بعد الأشهر الثلاثة الأولى . ومن ثم يحق له أن يتناول معاشاً تقاعدياً لعجزه عن العمل. ويحال العامل على المعاش فى سن الستين إذا كان رجلا ، وفى سن الخمسين إذا كان امرأة بشرط أن يكون قد عمل ٢٥ سنة ، منها عشر سنوات قضاها فى المصنع الذى بلغ فيه سن التقاعد . وتتقاضى المرأة أجراً كاملا لمدة ٥٦ يوماً عند الوضع ، وتمنح علاوات الأمومة من صندوق التأمين . وهذا الضمان الجماعى للعمال تتحمله الدولة لوحدها ، ولا يساهم فيه العامل ولا رب العمل .

قد اشتركت النقابات وإدارات المصانع فى إنشاء مصحات ودور للاستجمام ومحاضن للأطفال . كما أنشأت فى المصانع مطاعم رخيصة . ولا يسمح بالتغيب إلا فى حالة المرض ، ولا بتسريح العمال أو طردهم .

ومثل هذه السياسة لا يمكن اتباعها إلا فى بلد شيوعى حيث لا اعتبار لنفقات الإنتاج . وكان من الصعب الحصول على معلومات عن تكاليف الإنتاج فى المصانع التى زرتها ، ولعلهم لا يحتفظون بإحصاءات عن ذلك . ولما كانت البلاد تشكو قلة السلع الصناعية ، فإن أثمان هذه السلع تكيف وفقاً لضرورة السيطرة على الاستهلاك واستقرار الاقتصاد فى جميع أنحاء البلاد ، لا وفقاً للظروف الخاصة بكل من الصناعات ، كما هو الحال فى البلدان الرأسمالية .

وفى كل مصنع زرته ، بدا لى أن العمال أخذوا يشعرون بروح التملك وبأنهم طبقة القيادة فى أمة تتألف من طبقة العمال ، والفلاحين ، والبرجوازيين ، والرأسماليين الوطنيين . ولقد رأيت العامل فى جميع مرافق البلاد يدفع إلى الأمام عن طريق تذكيره بأن واجبه هو أن يقود الشعب إلى الاشتراكية . وإليك مثالاً على ذلك جرى فى أثناء حركة التطهير عام ١٩٥٢ ، وفيه يقوم عامل عمره ١٧ سنة يمثل العمال باستجواب تشن تشونج ـ شن التاجر فى شركة فراش الأسنان الصينية :

ـ ماذا يفعل التلميذ الصناعى ؟

ـ يتعلم صناعة .

ـ إذن لماذا تضربونه ؟

ـ لقد أخطأت .

— فماذا يجب أن تصنع ؟

— أن أخضع لقيادة الطبقة العاملة ، وأن أحنى رأسى للعمال .

— لماذا قدمت اعترافك إلى الحكومة ، ولماذا أحالته إلينا ؟

— لأنكم الطبقة القائدة فى البلاد .

— نعم ! إذن أى إنسان أنت ؟

— إنى تاجر شرير .

— هل أنت مجرم ؟

— نعم .

بمثل هذه الدعاية الحاذقة يستفزون الشعب ، ويمنونه بوعود يزكونها ببث روح التملك والتمرد على من يحول دون التملك . ويبعثون فيه الأمل بواسطة العمال النموذجيين . وقد لمست ذلك حتى فى أثناء رحلتى القصيرة .

كان العامل الصينى مشهوراً بالكد المرهق ورفع الأثقال ، أما اليوم فإنه مفعم بالآمال ، متوقد الشعور ، يريد أن يتقن عمله وأن يتعلم القراءة والكتابة . بيد أن الحماس وحده لن يعلمه كيفية إدارة الآلات أو الحصول على الجديد منها . إنه لا يدرك أن الصين لن تبلغ هدفها المنشود بالأساليب التى تتبعها الآن ! !

الفصل الخامس

المساعدات الأجنبية



إن أى تقدير لجهود الصين الصناعى يجب أن يدخل فى حسابه المؤسسات الصناعية الأجنبية الموجودة هناك ، وإمكانيات توسعها بتوظيف أموال جديدة ، ووجود الخبرة الفنية المحلية الكافية . ومن المسلم به أنه لم يُبذل أى مجهود فى السابق لتصنيع البلاد وتنمية مواردها الغنية . وفيما عدا المراكز الصناعية القليلة التى نمت فى المنطقة الساحلية ، فإن معظم المناطق الداخلية ظل منطقة ريفية تنتج المواد الخام . وكان معظم الصناعات آنذاك يعنى بإنتاج السلع الاستهلاكية الضرورية كالقماش والصابون والسجاير ، وبالمرافق العامة كالنقل وتوريد المياه والكهرباء . وكان أكثرها يملكه ويديره أجانب جذبهم إلى الصين ما توسموه فيها من سوق واسعة وإمكانيات الاستغلال المطلق من كل قيد . فتجمعت لديهم الأرباح الطائلة وخرجت

من البلاد ، دون أن يكون للشعب الصينى كلمة حول الأسعار أو الأجور أو سياسة البلاد المالية .

ولا شك أن أية حكومة حكيمة ترى أن واجبها الأول فى مثل هذا الموضوع هو رفع مستوى معيشة الشعب ، والمحافظة على حرية البلاد وكرامتها ، ولكن الشيوعيين أينما كانوا إنما يهتمون بالسلطة والسيادة . ومن ثم كان من السهل عليهم تحويل بؤس الشعب الوادع إلى نقمة على الأجانب الذين أهانوه واستغلوه : وكان من المحتمل أن تصبح هذه النقمة ذات جدوى ، لو أن الطاقة التى انبثقت عنها استطاعت أن تحل محل الخبرة الفنية ورؤوس الأموال اللازمة للنهوض بالأمة . ومن المؤسف أن القليل الذى رأيته فى الصين لا يبعث على هذا الأمل . فمجهود التصنيع لا يُعنى الآن بإعادة إنشاء ما يمكن إنشاؤه دون أجهزة حديثة أو إرشاد فنى .

ولقد كان نمو الصين الاقتصادى مقيداً منذ البداية بقلة المواصلات . فالسكك الحديدية تسير بين الشمال والجنوب فى المنطقة الساحلية فقط ، ولا مواصلات داخلية بين الشرق والغرب إلا بواسطة الأنهر . ويوجد من الخطوط الحديدية نحو ١٢ ألف ميل ، كانت تديرها سابقاً أربع دول ، هى بريطانيا واليابان وفرنسا والصين . ولا ننكر أن السكك الحديدية والمرافق العامة التى انتزعت من الأجانب تدار الآن بكفاءة ، ولكن المصانع لا تزال تفتقر إلى الأجهزة الحديثة والخبرة الفنية والإدارية ، لعدم توفر

الخبراء والموظفين الفنيين . وليست الجامعات والمعاهد الفنيه فى وضع يُمكنها من سد هذا النقص فى المستقبل القريب . ولقد زرت معظم الجامعات الشهيرة فى الصين ، واطلعت على ما يعتورها من مصاعب وعراقيل . فهى تفتقر إلى المعدات اللازمة للتدريب العملى ، كما أن إلغاء الكتب والمراجع الإنجليزية زاد الطين بلة ، إذ لا توجد كتب باللغة الصينية لتدريس العلوم الصناعية .

ويشاع أن الصين نالت قسطاً كبيراً من المساعدات الفنية ، وأن فيها آلاف الفنيين الروس . ولكن من الصعب معرفة عددهم بالضبط ، كما أن كل البوادر تدل على أن عددهم قليل بالنسبة إلى ما تفتقر إليه الصين من المساعدة الفنية . ولقد رأيت بعض الروس يقيمون فى فنادق بعض ما زرته من المدن . وشاهدتهم يغادرون الفندق فى الصباح الباكر ، ويلتزمون العزلة ، ويتناولون الطعام فى غرف خاصة بهم ، وكذلك يركبون سيارات خاصة ، كثيراً ما تكون الستائر مسدلة على نوافذها . وقيل لى إنهم مستشارون فنيون لحكومة الصين ، وإنهم منتظمون فى وحدة عسكرية هندسية ، ويعملون فى مكاتب مخصصة للإشراف على صناعات معينة . ولم ألتق مرة بأحد منهم فى مصنع ما ، ولكنى رأيت فى أحد المكاتب الحكومية المشرفة على أحد المشروعات ، صورة تمثل بوكوف خبير صيانة المياه الروسى يتباحث مع لجنة إدارة المشروع . وكانت المصانع بإدارة

الصينيين أنفسهم ، ولا يتدخل الخبراء الروس إلا إذا نجمت مشكلة استعصت على الصينيين فأحيلت على المكتب المختص .

وكانت لدى الصين القديمة مصادر أخرى للمساعدة ، كان فى وسع الحكومة أن تستفيد منها لو شاءت . فقد كان لعدد من الدول أموال ضخمة تستثمر فى الصناعات . واستولت الحكومة الجديدة على رؤوس الأموال اليابانية بعد هزيمة اليابان ، ووضعت الأموال الأمريكية تحت الرقابة الشديدة مقابل تجميد الأموال الصينية فى الولايات المتحدة . وكانت الأموال البريطانية فى الصين عام ١٩٣٠ تقدر بنحو ٢٠٠ مليون جنيه . وأضيفت إليها أموال أخرى قبل الحرب ، ويقدر المجموع فى الوقت الحاضر بنحو ٣٥٠ مليون جنيـــه . وكان يدير الشركات والمؤسسات البريطانية رجال عاشوا فى الصين سنين عديدة وعرفوها جيداً . وقد يكون منهم من استخف بالشعب وازدراه وترفع عنه ، ولكنهم كانوا على قدر من الكفاءة والمقدرة مما حمل بريطانيا على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع الصين .

ولذلك تخلف البريطانيون على أمل أن تدرك الصين عاجلا أو آجلا فائدة التعامل معهم . وكانوا على استعداد لتزويد الصين بما تحتاج إليه من سلع الاستهلاك والآلات والإرشاد الفنى ورؤوس الأموال لو سمح لهم باستثمار أموالهم بالطرق المشروعة . ولعل البريطانيين كانوا على حق فى ما كانوا يؤملون ، فقد واجهت الحكومة الجديدة مصاعب جمة ، اضطرتها

إلى قبول الرأسماليين عنصراً لازماً فى المجتمع . وكتب « ماو تسى تونج » يقول : « تحتاج تنمية الصناعة إلىأموال طائلة ، فمن أين نأتى بها ؟ إن لها مصدرين — الأموال المتجمعة لدى الشعب الصينى ، والقروض الأجنبية . وسنرحب بالأموال الأجنبية ونشجع استثمارها فى بلادنا ما دامت تخضع للقانون وتفيد اقتصادنا » . وصرح تشوان — لاى بمثل هذا إذ قال لى : « إننا طبعاً نرحب بأية مساعدة تقدمها لنا البلدان الصديقة » . وهكذا ظل الأمل يراود البريطانيين ، ولكن الصين قوية الذاكرة ، لا تنسى الماضى . ولئن جاز لفرد ألاّ ينسى الإهانة التى لحقت به من صلف عقدة الكبرياء ، فإن أمة تعتز بقوتها لتسمو عن تلك السفاسف . كانت مصلحة الشعب الصينى تقتضى استغلال أية وسيلة ترفع من مستوى معيشة الشعب ، وليس أقدر على ذلك من أوربا الغربية وأمريكا اللتين تتفوقان صناعياً على البلدان الشيوعية . وكان من الممكن أن يتخذ من الإجراءات ما يضمن عدم تدخلهما فى شؤون حكومة الصين . أما رفض مساعدتهما خشية تدخلهما ، فإنما هو اعتراف بضعف الحكومة وعدم ثقتها بنفسها .

ولا تزال الصين فى حيرة من أمر البريطانيين . إنهم يفتحون لها أبواب الثروة الغربية ، ولكن سجلهم فى الصين حافل بذكريات الاستعباد والاستغلال ، ولذلك تنتهج الصين سياسة التمييز والانتقام ، مما يؤدى إلى طرد الأجانب من البلاد . وأرسلت بريطانيا مذكرة تطلب فيها منح

رعاياها فى الصين من التسهيلات مايمكنهم من تصفية أعمالهم والانسحاب . وكنت إذ ذاك قد سألت مدير مصرف الشعب عن مصير المصالح الأجنبية فأجاب « يستطيع رجال الصناعة والتجارة الأجانب الموجودون حالياً أن يظلوا فى أعمالهم ، ونحن نرحب بالأموال الأجنبية على أساس المنفعة المتبادلة والمساواة ، بشرط أن يعملوا تبعاً للقانون » وبمثل هذا أجيب على المذكرة البريطانية . بيد أنه لا قيمة لمثل هذه التصريحات ، فالصين تعمل تدريجياً على إقصاء المصالح الأجنبية عنها ، رغم أن هذه المصالح تعمل وفقاً للقانون . والطرق المتبعة فى تنفيذ هذا الإقصاء ، تحمل طابع التشفى والتلذذ بإطالة التعذيب . لقد وقع الطير الجشع فى أحبولة الصياد ، ولم يعد فى وسعه أن يترك ممتلكاته ويغادر البلاد .

فهذا مدير فندق كاثى الشهير لم يتمكن من تصفية أعمال الشركة وتحويل الفندق إلى حكومة الصين والحصول على تصريح بالخروج إلا بعد عامين كاملين . ولا يزال مدير شركة التبغ الدولية ينتظر التصريح له بالخروج ، بعد أن قضى عاماً فى إجراءات التصفية والتسليم . وفى نفس الوقت تتراكم المطلوبات من الشركة ، بحيث يجب أن تدفع الضرائب وأجر ر الموظفين الذين لا يمكن فصلهم من العمل ، ويعتبر المدير مسؤولا بذاته عن تأدية جميع المطلوبات والديون ، وعن أى إخلال بالقانون من قبل أحد موظفيه . وقد التقيت فى شنغهاى بعدد من أولئك التجار ورجال

الأعمال الأجانب ، وزرتهم فى مكاتبهم ، فأعرب أحدهم عن دهشته مما أقوم به من مجازفة . وكنت أعلم أن الصينيين المكلفين بالعناية بى لم يكونوا راضين عن تنقلاتى ، فكانوا كلما عدت من موعد يسألوننى أين كنت . وبقيت على ذلك إلى أن رأت سفارة حكومتى أن من الضرورى أن ينبهونى إلى أنى أربكهم بتعريض نفسى للمخاطر . ورأيت يوماً مصير الرأسمالى الأجنبى ممثلا فى صورة معلقة على باب مكتب المدير — صورة رأسمالى منتفخ الجسم ملفع بالفساد والمضاربات ، وقد طعنه عامل منتصر بحربته . وكان المدير يرى هذه الصورة كلما دخل مكتبه ، دون أن يجرؤ على إزالة تلك الإهانة .

وقد أقنعنى ما رأيته فى شنغهاى أن الأجانب الذين تخلفوا فى الصين فى ورطة يصعب إنقاذهم منها . إن المذكرة البريطانية تعرب عن رغبة أكثر من ٧٠٠ رجل بريطانى فى مغادرة الصين ، بعد أن ثبت لهم استحالة ممارسة أعمالهم فيها . وشكا إلىّ الكثيرون منهم من الضرائب الإضافية المفروضة على الأجانب ، ومن استحالة تخفيض نفقات أعمالهم ، ومن تحويل التجارة إلى أيدى الدولة . ولم يبق لديهم ما يسدودن به المطلوبات المترتبة عليهم . وكانوا معرضين لعقوبة السجن لأنهم هم المسؤولون شخصياً عن ديون الشركة ، ولا أمل فى الحصول على قروض من المصارف . ولقد استغربت أن يشكو هؤلاء من ضريبة الدخل فى الصين التى لا تتجاوز

٣٠ فى المئة . بينما تبلغ فى إنجلترا ١٩ شلناً عن كل جنيه ! فقال لى أحدهم :
« إننا هنا مجبرون على دفع الضريبة سواء ربحنا أم لم نربح ! ! » .

ولم يسمح للمصالح الأجنبية فى الصين بإعادة تثمين موجوداتها وأسهمها ، بينما سمح للمؤسسات الصينية أن تفعل ذلك وفقاً لأسعار القطع الجديدة . والضرائب تجبى على الفور ، وتفرض غرامة ١ فى المئة عن كل يوم يتأخر فيه الدفع . وهناك مصانع لم تتمكن من العمل طيلة العام بسبب نقص المواد الخام ، ومع ذلك اضطرت إلى دفع أجور العمال كاملة عن العام بأكمله ، ولم يسمح لها بتسريح العمال الفائضين عن الحاجة. حقيقةً إن تسريح العمال ممكن نظريّاً ، بالاتفاق مع النقابة وبعد تعويضهم بأجور ثلاثة أشهر ؛ ولكن مثل هذا الاتفاق غير ممكن عملياً أو على الأقل صعب جدّاً، بحيث لا يرى الأجنبى بدأً من الرحيل . أضف إلى ذلك أن البنك الشعبى يرفض تسليف القروض ، فيضطر مدير الشركة إلى طلب الأموال من بلاده ، وإلا تعرض لعقوبة السجن ، بموجب القانون الصينى !

مثلاً كانت مؤسسة جاردين ماتسون وشركاهم أشبه بمملكة تجارية فى الصين القديمة ، إذ كانت تشرف على أعمال الشحن والأحواض والمرافئ والهندسة والمنسوجات وصنع البيرة . فقررت الحكومة عام ١٩٥٢ الحد من استهلاك البيرة ، وخفضت مشترياتها منها . وكانت النتيجة أن

تكدست البراميل فتعطلت أموال الشركة ، ولم يستطع المستر جوردن مدير الشركة أن يحصل من المال على ما يكفى لتسديد المطلوبات بما فيها أجور العمال . وطلب قرضاً من المصرف لقاء موجودات الشركة وأسهمها ، فلم يتنازل المصرف بالنظر فى طلبه . ولم يبق إلا أن يطلب المال من لندن ، وإلا عرّض نفسه للسجن . ورفض جوردن أن يقترض من لندن ، لأنه كان واثقاً من أن الصينيين سوف لا يسمحون برد القرض إلى لندن عندما يتمكن من ذلك . ووقعت الحكومة فى حيص بيص ، فإما أن تقبض عليه فتفسد بذلك كل أمل فى التعاون مع الأجانب ، وإما أن تتجاهل القانون. وظلوا يحاورونه عشرين يوماً ، تارة بالإقناع وطوراً بالشدة والضغط وأخيراً اعتقلوه ، وقرر البريطانيون فى يأس مغادرة الصين ، مخلفين أكثر من ٣٥٠ مليون جنيه من أموالهم المستثمرة الموظفة فيها ! !

وكنت قد التقيت فى هونج كونج بمستر « جون كزويك » وهو إنجليزى وسيم الطلعة ملم باقتصاديات الصين . وكان قوى الأمل فى إمكان قيام علاقات اقتصادية بين بريطانيا والصين الجديدة ، حتى إن أصدقاءه كانوا يلقبونه بالشيوعى. وكان فى مدينة تينتسن ، على أهبة العودة إلى وطنه. واستطاع بعد لأى أن يحصل على تصريح بالخروج . وعنّ لأحدهم فى وزارة الداخلية أنه إذا غادر كزويك الصين ، فلن تبقى رهينة تجبر الشركة على جلب أموال جديدة من الخارج . وفيما كان كزويك على

ظهر باخرة إنجليزية ، إذا بضابط بوليس يطلب منه أن يعود إلى منزله ، دون أن يقدم أى إيضاح . وكان كزويك يعلم أن العصيان لا يجدى ، فعاد إلى منزله وبات ينتظر استدعاءه إلى دائرة البوليس . وبعد يومين أرسل خادمه إلى دائرة البوليس يطلب رد الإذن بالخروج إليه ، بحجة أنه هو صاحبه الشرعى . ولم يكن البوليس قد تلقى تعليمات بشأن سحب إذن الخروج منه ، فرده إليه ، وقضى كزويك أسبوعين ينتظر دعوة البوليس . وجاءت باخرة إنجليزية أخرى ، وقبل موعد إقلاعها بساعة كتب إلى البوليس يقول إنه مسافر على ظهر الباخرة بعد أن قضى أسبوعين فى انتظار إيضاح من البوليس ، وإنه لا يسعه أن ينتظر أكثر من ذلك ما دام يحمل إذناً بالخروج . ولم يدر البوليس ماذا يصنع ، ولم يستطع الاتصال ببكين بسرعة لتلقى التعليمات . وهكذا استطاع كزويك أن يفر من الصين ! ! !

* * *

ولقد كانت روسيا السوفياتية عندما رغبت فى تصنيع بلادها ، قد تعاملت مع بريطانيا وأمريكا اللتين انحازتا ضدها إلى جانب الروس البيض عقب الحرب الأولى . فما الذى يمنع الصين من أن تحذو حذو روسيا ؟ أهى ذكريات الماضى المرة ، أم هل هناك قوى تعمل على الحيلولة دون نهوض صين جديدة يحظى شعبها بالتقدم والازدهار ؟ !

الفصل السادس

تقدم الصناعة



قال رئيس لجنة الشئون المالية والاقتصادية « لا مراء فى أننا نهدف إلى التصنيع ونحن بصدد إنشاء الصين الجديدة ، وإننا لباذلون كل جهد لبلوغ ذلك الهدف » . وقال تشو ان — لاى « يحتاج إنعاش الاقتصاد الصينى إلى ما بين ثلاث وخمس سنوات . ويجب أن نتوفر فى هذه المدة على تنمية النواحى الهامة التى تهيئ الظروف المناسبة للتصنيع ، كرأس المال والسوق المحلية والخبرة الفنية» .

جاءت هذه الأقوال فى التقارير التى قدمت لمجلس الشعب السياسى الاستشارى فى سبتمبر ١٩٥٠ . وقد زرت المصانع الصينية فى عامى ١٩٥١ و ١٩٥٢ فرأيت ماهية تلك الجهود ، وإلى أى مدى نفذت تلك الوعود . فلا مندوحة من التصنيع إذا شاءت الصين تخفيف وطأة الفقر عن شعبها ، ولكنها تعانى مصاعب جمة ، منها ما هو عام فى جميع البلدان المتأخرة ، ومنها ما هو خاص بها ، من صنع يدها أو مفروض عليها بسبب النزاع الدولى . وهى تزعم أنها ذللت بعض المصاعب وحققت تقدماً

فى الإنتاج الصناعى والخبرة الفنية . فمثلاً عرضت فى معرض صناعى أقيم بالهند أدوات آلية ؛ وتنشر صحافتها كل يوم أنباء مئات الاختراعات التى ابتكرها عمالها. ويقدم زعماؤها إحصاءات عن التقدم الصناعى ، ولكنها مع الأسف ليست ذات غناء ، لأنها مجرد أرقام بنسبة الزيادة المئوية على إنتاج عام ١٩٤٩ .

ولقد كانت الصين يوماً مخزناً لبضائع العالم . وفى فترة التضخم المالى كانت تلك البضائع تُستخدم بدلا من النقد ، ولا تزال إلى اليوم تسد حاجات الشعب الذى سدت فى وجهه موارد التموين الأخرى . ومخازن المدن الكبرى تغص ببضائع أنتجت قبل خمس أوعشر سنوات . والسلع المصنوعة محلياً كالسجاير والصابون والقماش متوفرة ، إلا أنها مرتفعة الثمن بغية تحديد الاستهلاك . وما يوجد من الأدوية قديم، وربما يكون قد فسد . ويتوقف الاقتصاد الصينى على مقدرته على سد حاجات الشعب الضرورية. كما أن تحسن الزراعة وحالة الفلاح ،قد زاد من الطلب على المنتجات الصناعية . ولا بد من تلبية هذا الطلب إما بالإنتاج المحلى وإما بالاستيراد . وقد قال رئيس لجنة الشؤون المالية والاقتصادية فى تقريره عن عام ١٩٥٠ « تبلغ الصناعات الحديثة القليلة التى لدينا ١٠ فى المئة فقط من اقتصادنا الوطنى ، وهى ضعيفة جداً وغير مستقرة » .

وزاد الطين بلة أن معظم الصناعات الحديثة التى نشأت كانت مملوكة

للأجانب الذين استقروا فى شنغهاى وتينتسن وكانتون ومنشوريا . وبإقصائهم عن البلاد نجمت مشكلة الخبرة الفنية والإدارية . وقد أفادت الصناعة الصينية من إعادة منشوريا إلى الصين ، لأن اليابانيين كانوا قد استثمروا أموالا طائلة فيها ، ونموا مواردها الطبيعية ، فازدهرت صناعات الفحم والحديد والنحاس والذهب والزيت . وكذلك صناعة الأدوات الآلية فى أنشان وموكدن ، والمنسوجات والأجهزة الكهربائية . ولذلك شاقنى أن أزور تلك المنطقة ، وخاصة أن الصحف الهندية كانت قد أفاضت بعد الحرب فى التعليق على احتلال الروس لمنشوريا وتفكيك آلاتها الصناعية . ولكن قيل لى فى بكين إن التخريب تم على يد أنصار كاى تشيك لا على يد الروس ! ! وزعم أحد كبار رجال الصين أن الروس ردوا جميع الآلات ! وقال آخر إنهم ردوا معظمها ! ! وهكذا فإنه من الصعب الاطلاع على الحقيقة فى أية دولة شيوعية . غير أن أحد الخبراء الصينيين القلائل قال لى إن الروس نقلوا كثيراً من المصانع ولم يردوا منها شيئاً ! !

وكانت رحلتى بالقطار عبر البلاد تبشر بالحصول على مزيد من المعلومات . فالصين كانت قارة تفتقر إلى جهاز الدولة الحديث ، لا يربطها ببعضها سوى نظام العيش المشترك . أما الآن فإن الدكتاتورية تقتضى إدارة واسعة موحدة .

وبدأت زيارتى للمنطقة الصناعية فى الشمال الشرقى ، بالمعرض الصناعى

الزراعى فى موكدن ، الذى حفل بجميع أنواع الفولاذ والأدوات الآلية كالمخارط والمولدات والمحركات الكهربائية ، والأسلاك والمواد الكيميائية والبنزين الاصطناعى ومشتقاته ، والأقمشة والأوانى الزجاجية والفخارية . كما عرضت نماذج مصغرة لبعض المصانع . وكان المعرض كاملا من الوجهة الفنية كما كان منظماً بدقة لتثقيف الزائر صناعياً. وتقاطرت السيارات الكبيرة مشحونة بأفراد الشعب من المناطق المجاورة ، فكانوا يتفرجون مندهشين ، إذ لم يكونوا قد زاروا مصنعاً حديثاً من قبل ، كما كانوا يجهلون ما يحتاجه المصنع من خبرة فنية وعمال مدربين . ولو أنهم كانوا يعلمون لأدركوا أن واحدة من تلك الآلات العجيبة المعروضة ليس من إنتاج الصين نفسها . كان المعرض دعاية شيوعية كسائر دعاياتهم ، كاملا فى تفاصيله دقيقاً فى تنظيمه ، واعياً للضعف البشرى الذى يجعل المرء يصدق ما لا يفهمه !

وكان برنامج الرحلة يشمل زيارة مصنع لصهر الرصاص ، وآخر لإنتاج آلات المناجم وعجلات القطر الحديدية . وكان يديرها رجال مرموقون من أعضاء الحزب الشيوعى الصينى ، وليس فيها خبراء ولا فنيون فى لجانها الإدارية . فإذا قامت مشكلة ، أحيلت إلى الخبراء الروس فى مكاتبهم فى موكدن . ومن الجدير بالذكر أن العامل الذى يختار كعامل نموذجى ، يوصف فى نفس الوقت بأنه خبير فنى ، ويتمتع بما للفنى من امتيازات . ولقد تبين لى أن معظم العمل فى المصانع يتم باليد لا بالآلات ،

حتى صب عجلات القطارات ! ! ولم نر إلا فى واحد منها بعض المخارط وما أشبه ، يتدرب العمال على استعمالها . ولا شك أن الاقتصاد الشيوعى لا يعبأ بالنفقات والتكاليف لأن المطلوب هو الدعاية فحسب . فقد قيل لى وأنا فى المعرض إن الصين تنتج أدوات المناجم والتعدين . فزرت المصنع الذى يدّعى إنتاجها ، فلم أر فيه آلة واحدة تامة . فطلبت أن أزور قسم تركيب أجزاء الآلات ، فقيل لى إن الآلات تشحن حالما يتم تركيبها لشدة الحاجة إليها ! !

ولم أجد لأخذنا لزيارة تلك المصانع من غاية سوى إقناعنا بأن الصين ماضية فى نهضتها رغم جميع المصاعب . وشاقنى أن أرى التصميم على تذليل المصاعب ، ولكن ألم يكن تذليلها أهون لو أنهم حاولوا سياسة التفاهم الدولى بطرق واقعية ؟ أم هل حالت الظروف دون حرية الاختيار ، فاضطروا إلى الاعتماد على الروس وحدهم ؟ ومما لا شك فيه أن الروس يستغلون وضع الصين الراهن لمصلحتهم .

وتوقعت فى زيارتى الثانية لموكدن أن أرى تقدماً فى الكفاءة الصناعية ، بعد أن استطاعت روسيا وأوربا الشرقية فعلا أن تسدا الحاجة الملحة إلى البضائع الرئيسية ، بالإضافة إلى ٦٠ مليون دولار سنوياً قدمتها روسيا بموجب المعاهدة الصينية الروسية ، كقرض بفائدة ١ فى المئة لمدة خمس سنين ، تنفق فى شراء ما تصدره روسيا من آلات وأجهزة . ورغم كل

ذلك سمعت من مصدر وثيق فى بكين ، أن الصين لم تحصل على أية أجهزة ، وأن القليل الذى ظفرت به اشترته من أوربا الشرقية . وفى هذه المرة أيضاً بدأت زيارة موكدن بالمعرض الصناعى . وسألنا عما وعدونا به من زيارة مصنع للقاطرات ، فقالوا إنهم رتبوا لنا زيارة منجم فحم بدلا من ذلك . وكانت زيارة المنجم ومصنع تكرير الزيت مفيدة من عدة نواح . ولما كنت قد قرأت فى مجلة الصين الشهرية أن إنتاج مناجم الفحم ثاثنج ازداد بنسبة ٢٨٤ فى المئة عام ١٩٥١ على ما كان عليه عام ١٩٥٠ ، فقد أردت التأكد من ذلك بزيارة حقل الفحم الفسيح فى فوشون . وفوشون هذه نظمها اليابانيون على الطراز الغربى . وقادونا إلى مناجم لنج فونج الشهيرة ، وأعطونا بعض القطن لننقى به أفواهنا وأنوفنا . ورأينا بين آن وآخر سيارة شحن تصعد من قاع المنجم محملة بالفحم ، ولكننا لم نشاهد سير العمل فى الداخل ، واضطررنا إلى تصديق القول بأن هناك عشرة آلاف عامل . وقادونا بعد الظهر إلى منجم مكشوف وكان منظراً رائعاً ، فهو أشبه بواد صغير طوله ٧٠٠٠ متر ، وعرضه ٣٠٠ — ١٢٠٠ متر ، وعمقه ١٧٠ متراً ، وتعلو الفحم طبقة من النفط ، وإلى جانب المنجم مصنع التكرير ، الذى أعادت الحكومة الجديدة إنشاءه ، فبلغ إنتاجه مستوى ما قبل الحرب .

ثم زرنا مصنعاً للآلات والأدوات ، ورأيت فيه لأول مرة آلات

مستوردة من روسيا . أما من حيث صناعة النسيج ، فقد اعترف الإنجليز فى شنغهاى بكفاءة الصينيين ونجاحهم فى إدارتها ، والكثير من مصانعها يملكه رأسماليون مستقلون ، بعكس المصانع البريطانية التى تخضع لإشراف المنظمة الحكومية المسماة شركة المغازل والمناسج القطنية . فالحكومة تقدم القطن وتتسلم النسيج الجاهز بعد دفع بعض نفقات الصنع . ولما كانت المنسوجات توزع بالبطاقات وموحدة ، فلا مجال للابتكار والربح . والكساء بعد الغذاء من ألزم الضرورات للشعب الصينى ، وهو عامل فعال لتثبيت الاقتصاد والثقة بالنقد . والحكومة الصينية تزعم أن البلاد أصبحت تكفى نفسها بنفسها من الأقمشة ، وأنه أصبح فى وسع الفلاح أن يشترى كمية أكبر منها بفضل نظام إصلاح الأراضى وارتفاع القدرة الشرائية .

بيد أن الصين كانت تعانى نقصاً فى القطن والأقمشة فى الماضى ، وكانت تستورد الكثير من ذلك من اليابان والهند . وليس فى الصين الآن أكثر من خمسة ملايين مغزل ، وقد توقف كثير من المناسج عن العمل عام ١٩٥١ مدة ستة أسابيع بسبب قلة القطن . ولو عملت جميع المغازل طيلة العام ، فليس من المستطاع إنتاج أكثر من ٢٠٠٠ مليون متر من القماش ، وليس ثمة مورد آخر بسبب الحصار الاقتصاد المضروب على الصين . ويستنتج من ذلك رغم كافة الادعاءات أن البلاد لا تنتج من القماش ما يكفى لسد حاجة الشعب . وقد أدى الاقتصار على الإنتاج المحلى

إلى توزيع الأقمشة بالبطاقات وتوحيدها وندرتها وارتفاع أسعارها ، فالذراع الواحد من القماش العادى يبلغ ثمنه نحو ٤٢ سنتاً أمريكياً . وكان الموظفون المكلفون بمرافقتنا يرتدون نفس البدلة الزرقاء دون غسل ولا كى . إذ أنهم لا يحصلون على أكثر من بدلة واحدة فى العام . فكيف يتسنى للصين أن تسد حاجاتها من الأقمشة إذن ؟

ومن الطريف أن بين شيه — تشنج مدير منسج هنجوان فى تينتسن — حينذاك — رجل رأسمالى مستقل مثالى ، استطاع أن يكتسب ثقة الحكومة وأن يعتبر رأسمالياً تقدمياً . وعندما استقبلنى كان يرتدى بدلة أنيقة نظيفة ، ودل مسلكه على أنه كان يعرف كيف يعامل أسياده من الطبقة العاملة . وقدم لنا أفخر شاى ذقناه فى الصين ، بينما أخذ يحدثنا عن أعماله . قال إنه عانى عام ١٩٥٠ نقصاً فى القطن وصعوبة فى الحصول عليه كصاحب مصنع مستقل ، فذهب إلى المنظمة الحكومية المختصة وعرض إبرام عقد يقدم بموجبه كل ما ينتجه من الأقمشة مقابل تزويده بالقطن ودفع بعض تكاليف الصنع . وقبلت الحكومة ، وكان الاتفاق فى مصلحته ، إذ أن المنظمة دفعت ٧ ½ فى المئة كأرباح للمساهمين ، واحتفظت بالباقى كرأسمال احتياطى .

وكان هذا المدير ذا علاقة طيبة مع عماله . واستقبلنا زعماء النقابة والعمال النموذجيين كالعادة ، ولكنهم لم يقدموا لنا التقارير الرسمية المعتادة

عن سير العمل . ولم يسمح المدير بإلقاء الخطب ، وآثر الرد على أسئلتنا بينما كنا نتجول فى المصنع . ولما عدت إلى تينتسن فى رحلتى الثانية ، كانت حركة تطهير جهاز الحكومة والصناعة فى مراحلها الأخيرة . وطلبت زيارة مصنع هنجوان ، لأرى المدير شيه — تشنج ، ولكن عبثاً . ولعل ذلك المدير النموذجى التقدمى كان قد اختفى فى معمعة التطهير ! !

وزرت قرب نانكين مصنعاً للسماد يديره الخبير العالمى الشهير الدكتور هاو الذى عاش عدة سنوات فى الولايات المتحدة ، وهو الآن المدير الفنى لمصنع الكيمياء ومستشار الحكومة الصينية . وقابلت غيره الكثيرين من أرباب الصناعة ومعظمهم من الأجانب . وقد أيدوا جميعاً أن كثيراً من المصانع يتعطل عن العمل بمعدل ثلاثة أسابيع كل شهر ، إما لنقص فى المواد الخام ، وإما لكساد فى طلب البضاعة . وكان مصنع التبغ والسجائر يعمل بثلث طاقته ، مع أن ولع الصينيين بالتدخين مشهور . ولنا أن نستنتج من كل ذلك أن محاولات الصين فى السنوات الثلاث الأخيرة لإنعاش صناعتها ، اتسمت بطابع الجهد أكثر منها بطابع التحقيق والإنجاز . وقد اضطرت فى كثير من الأحيان إلى الإنتاج اليدوى لتسد حاجاتها المستعجلة . وقد حالت دون الإفراط فى الاستهلاك بواسطة التقشف وارتفاع الأسعار . ورأيت فى نانكين دراجات إنجليزية تباع الواحدة منها بسعر ٢٢ دولاراً ، ودراجات يابانية يتراوح ثمنها بين ٩٨ و ١٧٠ دولاراً .

وتستعمل الصين القليل الذى لديها من الأجهزة الآلية فى تدريب عمالها . وقد بدا ذلك جلياً فى معرض آخر كان مثالا حسناً على كيفية تدريب الشعب على الشعور بأن بلاده أخذت تقوم بأعمال لم تسبق محاولتها من قبل . وتم ذلك بتعليق سلسلة من الإعلانات تتناول مختلف نواحى الحياة وما حققته الدولة فيها . وكان بين المعروضات سيارة ساعدت على إنتاجها غيرة العمال الشيوعية ! إنها إنتاج دولة العمال ، تحققت دون أجهزة آلية ولا خبرة فنية ؛ أما هل ستتمكن من السير على الطريق ، فتلك مسألة أخرى !

إن الحكومة الصينية لا تعبأ كثيراً بالواقع ، فكل ما تريده هو الدعاية والإعلان ؛ . . إنها تعرض أمام الزائر سيارة بالحجم الطبيعى تزعم أنها من صنع أبناء الصين ؛ ولا يعنيها أن تكون هذه السيارة قادرة على السير على الطريق أم لا ! ! . . .

وإنها لوسيلة ناجحة من وسائل الدعاية والإقناع . ولقد رأيت تأثيرها فى بعض الزملاء الصحفيين الذين عادوا إلى الهند زاعمين أن الصين تنتج السيارات والزيت الصناعى وغير ذلك من المصنوعات التى يأمل الآسيوى الفقير فى الحصول عليها يوماً ما !

الفصل الثامن

التضخم والمالية



وجد الاقتصاد الصينى نفسه فى نهاية الحرب مقوض الأركان ، بسبب انهيار الصناعة ونقل الآلات وتوقف السكك الحديدية . وقد اختل نظام الزراعة ، واجتاحت المجاعة مناطق واسعة ، بينما اختزن الفلاحون الحبوب الغذائية . وزاد من متاعب الشعب ، اختلال النظام المالى ، فلم يكن الشعب يدرى قيمة ما لديه من المال بين يوم وآخر . وكانت الأسعار تتغير من ساعة إلى ساعة ، فيرى المرء نفسه مرغماً على تبديل النقد ببضاعة ، وشلت حركة التجارة ، إذ فقدت الثقة بالنقد المحلى ، وأصبح التعامل بالذهب والنقد الأجنبى . ومضى « الكومنتانج » فى نفس الوقت يطبع المزيد من أوراق النقد حتى ضاعت النسبة بين الأسعار والنقد المتداول ،

وأصبحت الأسعار تتوقف على ثقة الشعب أو عدمها . فنى عام ١٩٤٩ بلغ النقد المتداول ١٧٦,٨ بليون ضعف ما كان عليه قبل الحرب ، وارتفعت الأسعار ١٣٨٤٤ بليون ضعف. أى إن من كان يملك عشرة آلاف دولار قبل الحرب ، لم يكن فى وسعه عام ١٩٤٩ أن يشترى بها عود ثقاب واحد ! !

وقد أصيب الإنتاج ببعض الضرر من جراء هذه الحالة ، فهبط الإنتاج الزراعى ٣٠ فى المئة ، كما هبط الإنتاج الصناعى ٥٠ فى المئة. وليس ثمة شك فى أن علاج مثل هذه الحالة أمر شاق ؛ من ثم يحق للحكم الشيوعى أن يفخر بأنه استطاع معالجة الوضع واسترداد الثقة والنظام فى برهة وجيزة . فقد استقرت الأسعار الآن نسبياً ، وبدأ الشعب يشعر بالاطمئنان رغم بقاء بعض الاتجاه نحو التضخم . ونتيجة لذلك تمت عملية مكافحة التضخم فى عام ١٩٥٠ . ومن ثم مُهد السبيل أمام الانتقال بالاقتصاد من حالة الحرب إلى حالة السلم . وقد لا تتحقق مثل هذه النتائج السريعة إلاّ فى ظل اقتصاد دكتاتورى ، بيد أن الكفاءة التى تم بها ، تدل على المقدرة الإدارية عند الحكومة الجديدة .

وكان لا بد من ثلاثة أمور لتثبيت النقد واسترداد الثقة به هى : (١) موازنة الميزانية وضبط الإيرادات والمصروفات . (٢) تطمين الشعب إلى أن ما لديه من نقد سيحتفظ بقيمته . (٣) مراقبة الأسعار للإبقاء على ثقة الشعب .

وتحقيقاً للهدف الأول قامت الدولة بتنظيم ماليتها . فمركزت الإيرادات، ووضعت النفقات تحت إشراف الحكومة . وطلب من الفلاحين أن يدفعوا ضريبة الأراضى عيناً . وأمرت الصناعة بمداومة العمل ، وتسلمت الحكومة إنتاجها . . وأعيد تسيير القطارات إلى جميع الجهات . وبذلك ازدادت إيرادات الدولة زيادة كبيرة . ومن الجهة الأخرى ، وُضع الإنفاق تحت مراقبة شديدة ، فكثيرون من موظفى الحكومة لا يتقاضون رواتب ، بل يقدم إليهم المأوى والمطعم والملبس . وقد قال « نان هان — تشن » مدير المصرف الشعبى ، إن هذه الإجراءات خفضت العجز إلى حد أن السندات التى أُصدرت ذلك العام بقيمة مئة مليون دولار غطت كافة احتياجات البلاد.

وتحقق الهدف الثانى — وهو استقرار قيمة النقد — باصطناع « وحدة إيداعية » . فقد صدر أمر إلى المنظمات الحكومية والمؤسسات والمدارس والقوات المسلحة ، بألا تحتفظ من النقد إلا بما يكفى لمصروف ثلاثة أيام فقط ، وأن يودع الباقى فى المصارف على أساس وحدات تُضْمَن قيمتها مهما كانت الأسعار الحالية . وكانت الوحدة الإيداعية تشمل الأرز والقماش والزيت والفحم . وحُرِّم التعامل بالذهب ، وكُلِّف الأهالى برده إلى المصارف التى اشترته بأسعار منخفضة جداً . وكذلك سُحب النقد الأجنبى واستبدل بسعر لا يتفق مع السعر الفعلى . وبهذا النقد الأجنبى والذهب تمكنت الدولة من دفع أثمان مستورداتها . وكان فى

الصين ٨٠٠ مصرف خاص مستقل ، فوضُعِت جميعها تحت إدارة المصرف الشعبي منعاً للمضاربات النقدية والتجارية .

أما مراقبة الأسعار ، فقد تمت بوضع تجارة الحبوب والقماش والفحم وسائر الضروريات تحت إشراف سلطة مركزية . واختزنت الحكومة مختلف البضائع وأخذت تبيعها بأسعار محدودة فى مخازنها ، كما اختزنت المواد الغذائية مما كانت تجنيه من ضريبة الأراضى العينية . وكانت هذه تكفى لإطعام ٤٥ مليون نسمة طيلة العام . ولما كانت مضطرة إلى إطعام ٦٠ مليون نسمة فى مناطق المدن ومناطق المجاعة ، فإنها اشترت كميات إضافية من السوق الحرة ، وجمعت ضرائب عامى ١٩٤٩ و ١٩٥٠ فى بحر ذلك العام .

وكان « نان هان — تشن » هو الذى كلف بشرح كفاح الصين ضد التضخم أمام الزوار الذين اجتمعوا فى بكين عام ١٩٥١ ؛ باعتباره مديراً للمصرف الشعبي الذى يهيمن على سياسة الصين المالية والنقدية . وقد سمعت أنه كان كاتباً فى بنك الصين فى عهد الكومنتانج . أما اليوم ، فإنه الرأس المفكر القابع خلف سياسة إغراق البلاد بالنقد ، ثم ابتزازه منها فى سبيل المحافظة على استقرار الأسعار . ولقد ظل يتكلم ثلاث ساعات فى موضوع جاف ، ولكنه استرعى انتباههم طيلة الوقت بفرط بساطته وسلاسة أسلوبه . ولست أظن أنه عضو فى الحزب الشيوعى . ولكنه

كالدكتور شاخت الألمانى مخلص لحكومته ينفذ سياستها كخبير ! .
قال يصف نجاح سياسته « ليس عندنا الآن تكديس ولا نقص فى البضائع .
لقد حظرنا استيراد الحبوب والأقمشة التى لا نحتاج إليها ، فوسعنا المجال
لمنتجاتنا الصناعية والزراعية . وهكذا ازدادت التجارة ومعها النقد المتداول .
وقد وازنا الميزانية ، ولدينا ما يكفى من القطع الأجنبى . وحافظنا على
الاستقرار المالى وثبات الأسعار . من المحتمل أن تكون حوادث متفرقة
من نقص التموين قد وقعت فى بعض الأحيان ، ولكننا حاولنا معالجتها .
ولقد أعدنا تنظيم الطاقة الإنتاجية لصناعاتنا ، وأنشأنا مشاريع كبرى للرى
كمشروع نهر هواى ، وخفضنا مساحة منطقة المجاعة من ٢٠ مليون فدان
إلى ٧ ملايين . وسنعالج الفرق بين الأسعار الزراعية والأسعار الصناعية
بالتصنيع العاجل . »

وإنه حقاً لسجل حافل ، كان القصد الأساسى منه اكتساب ثقة
الشعب بالنقد الوطنى . ثم إن قبول الحكومة ضريبة عينية على الأراضى ،
وتحديد الأجور بمواد غذائية كالأرز والذرة ، جعلا الفلاحين والعمال
يطمئنون إلى استقرار مستوى المعيشة ، ولو أنه مستوى منخفض . وكان
الاستقرار السياسى من أهم العوامل فى اكتساب ثقة الشعب . وظل التضخم
رغم ما بذل فى مكافحته ، ولكن عندما عاد « ماو تسى تونج » من موسكو
فى فبراير ١٩٥٠ ، كانت المعاهدة التى حملها معه ذات أثر سريع على النقد .

وهكذا ثبتت دعائم الدولة الجديدة ، ولم يعد من خطر على مستقبلها إلا بإشعال حرب عالمية ، فأقبل الشعب على المصارف يبدل ما لديه من ذهب ونقد أجنبي ، واستطاعت الحكومة أن تنفذ سياستها المالية .

بيد أن توقف ارتفاع الأسعار إنما كان موقتاً . فإن الصين كسائر الدكتاتوريات تعيش على طبع أوراق النقد . كما أن تجنيد جيش ضخم قوامه خمسة ملايين ، وتمويل المشاريع الكبرى ، والاحتفاظ بجهاز إدارى هائل ؛ كل هذا يُشكل عبئاً ثقيلا على بلد متأخر محدود الموارد . ومع أن أرقام الميزانية الحقيقية غير متيسرة ، فلا شك فى أن الإيرادات لا تفى بالحاجات المترتبة عليها . وهناك ما يثبت أن نقداً إضافياً يطرح للتداول . وقد ارتفعت الأسعار فعلا خلال ١٩٥٠–١٩٥١ ، وقد يكون ذلك الارتفاع قد بلغ ٤٠ فى المئة كما قال موظف كبير ، ولو أن الحكومة زعمت أنه لم يبلغ أكثر من ١٣ فى المئة فى المواد الزراعية و ١٩ فى المئة فى المواد الصناعية. ولما كانت الأجور والرواتب تقدر بمادة الأرز أو الذرة ولكنها تدفع نقداً على أساس السعر الجارى يوم الدفع ، فإن ارتفاع الأسعار إنما يؤثر فى استهلاك المواد الأخرى غير الحبوب الغذائية . أما ارتفاع أسعار الحبوب الغذائية، فإنه يدل على انخفاض قيمة النقد، لأن ذلك الارتفاع لا يستهدف التوفيق بين العرض والطلب . ولكن لا توجد قوة شرائية فائضة عن الحاجة . وإليك ما قالته صحيفة الصين الشعبية بسذاجة فى هذا الصدد :

كان لا بد من ارتفاع أسعار البضائع الصناعية قليلا ، بسبب اطراد ازدياد القوة الشرائية عند الشعب ، بينما لم يبلغ الإنتاج الصناعى الشأو الذى يُمكنه من سد جميع حاجات الشعب . وهذه ظاهرة طبيعية فى التطور الاقتصادى . ولذلك فإن ارتفاع الأسعار فى العام الماضى بنسبة ١٣،٨ فى المئة ليس إلا انعكاساً لارتفاع قوة الشعب الشرائية . »

قد يقال إنه طرأت زيادة على أجور العمال ، وإن هذا دليل على زيادة قوتهم الشرائية . ولكنهم زعموا أيضاً أن الإنتاج قد ازداد ، فكان يجب إذن أن تلبى زيادة الطلب بزيادة العرض دون ارتفاع الأسعار . وإذن فإن ما يخفض قيمة العملة هو حاجة الميزانية إلى أموال نقدية . ومثل هذا إنما هو ظاهرة طبيعية لنظام مالى عاجز مختل . وأنا أعتقد أن الميزانية لم توازن ، وأن المصروفات العسكرية وتكاليف المشاريع الكبرى إنما تُغطى بطبع أوراق نقدية جديدة ، ما دامت الدولة تسيطر على مقدرات الأمة . وقيمة النقد إنما تتوقف على ما ترسمه الدولة ، لا على وفرة السلع ولا على أى عامل آخر ، وهى تبرعات غير اختيارية إلا بالاسم فقط . وفى السنوات الثلاث الأخيرة شنت ثلاث حملات تبرعية ، كانت أولاها إصدار سندات دين بمبلغ مئة مليون دولار ، وثانيتها حملة مساعدة كوريا ومقاومة أمريكا ، والثالثة حملة سن فن وو فن .

ولقد اجتمعت بنان هان — تشن ثانية فى زيارتى الثانية . ودعانى للرد

على أسئلتى التى كنت أرسلتها إليه مسبقاً كالعادة . قال : « إن المصادر الرئيسية لإيراداتنا هى : (١) الضرائب على الإنتاج وعلى بيع السلع وضريبة الدخل . (٢) إيرادات الصناعات التى تديرها الدولة . (٣) إيرادات الأراضى . ولقد وازنا الميزانية ، وفى البلاد أموال مدخرة كافية . ونحن نمول مشاريعنا الكبرى من إيراداتنا ؛ والحكومة المركزية تشرف بدقة على المالية . وليس فى البلاد تضخم مالى ، كما أن الأسعار تخضع لقاعدة العرض والطلب فى السوق الحرة . . صحيح أن الحكومة تحتفظ بمخزون كبير من البضائع ، لكى تسيطر على الأسعار فى سبيل مصلحة المستهلك والمنتج . أما التفاوت بين الإنتاج الزراعى والإنتاج الصناعى فإنه لا يقتضى مراقبة الأسعار . والنقد الصينى غير مرتبط بأية سلع أو موارد . وعندنا بالفعل من السلع المخزونة ثلاثة أضعاف النقد المتداول » .

ودامت المقابلة ساعة ، ولكننى اقتصرت على أسئلتى المكتوبة . وكان مصمماً على إنكار وجود أى تضخم ، أو أن الحكومة تطبع أوراق نقد لتغطية مطالبها ، أو أنها تلجأ إلى حملات التبرع الإجبارى لإزالة الفائض من القوة الشرائية لدى الشعب . كما أنكر وجود أية مراقبة على الأسعار ، مع أنه كان قد اعترف بذلك فى العام السابق . ويستنتج من بياناته أن هناك سياسة معينة للأسعار ، وأن النقد لا علاقة له بتكاليف المعيشة ، فإنما هو قوة من قوى الدولة ، ويطبع لخدمة أغراضها ، أما قيمته فتافهة .

الفصل التاسع

الاقتصاد الصينى



يزعم « تشوان — لاى » أن الاقتصاد الصينى اشتراكى النزعة ، خاضع لقيادة الدولة ، وأنه مقسم إلى خمسة أجزاء تنسقها الدولة وتنظمها من حيث نواحى التنفيذ ، وتقديم المواد الخام ، والأسواق ، وظروف العمل ، والأجهزة الفنية ، والسياسة المالية العامة وما إلى ذلك . وتشمل الأجزاء الخمسة مزارع العائلات وكافة الحرف اليدوية ، والمؤسسات الرأسمالية الخاصة ، ومؤسسات الدولة الرأسمالية ، والمشاريع التعاونية ، والمشاريع المؤممة . وقد تم تأميم ٨٠ فى المئة من الصناعات الثقيلة ، و ٣٠ فى المئة من الصناعات الخفيفة .

ويعتبر الإبقاء على الزراعة والصناعة المستقلتين فترة من فترات انتقال الصين الإقطاعية إلى الصين الاشتراكية المحضة . وقد جاء فى مقال نشره « ماو تسى تونج » : أن المرحلة الأولى هى الديمقراطية الجديدة ، والثانية هى الاشتراكية . وقد تدوم المرحلة الأولى فترة طويلة . وكتب يصف

الطابع السياسى والاقتصادى لثورة الديمقراطية الجديدة ، فقال إنها من الناحية الاقتصادية تحاول تأميم جميع المؤسسات الرأسمالية الكبرى ، وكافة مشاريع الاستعماريين والخونة والرجعيين ، وتقسيم الأملاك الكبيرة من الأراضى وتوزيعها على الفلاحين ، ومساعدة الصناعات المستقلة الصغرى والمتوسطة دون أى محاولة للقضاء على اقتصاد أغنياء الفلاحين . ومع أن مثل هذا النوع الجديد من الثورة الديمقراطية يمهد السبيل للرأسماليين ، إلا أنه من جهة أخرى يخلق سابقة للاشتراكية .

وتبدو الصين الشيوعية للزائر كبلاد ذات اقتصاد مختلط ، فيها الكثير من المشروعات الفردية التى يسمح لها بالحصول على ربح لا بأس به . ويقال إن الدولة تسمح للرأسمالى المستقل بالحصول على أرباح بمعدل ١٥ فى المئة ، وبتوزيع ٨ فى المئة من الأرباح فى الشركات المساهمة ، وأن القانون يقضى بتحويل ١٠ فى المئة من الأرباح إلى الاحتياطى . أما البريطانيون فى الصين ، فإنهم يؤكدون أن الصناعة لا تجنى أى ربح ، حتى ولا صناعة النسيج ، لأن الحكومة تستأثر بالأرباح ولا تدفع سوى نفقات الإنتاج فى المصانع . وإذا سمح لبعض المصانع بالبيع المباشر ، فإن التجار لا يشترون إلا القليل لأنهم فقدوا أسواقهم بانتقال التجارة إلى أيدى الحكومة والمخازن التعاونية ! ! وقد شهدت بنفسى مخازن الحكومة تغص بالمشترين بينما خلت المخازن الأخرى منهم . والأسعار فى المخازن

محددة ، ولكن أصحاب المخازن لا يمتنعون عن حمل بضائعهم إلى بيوت المشترين وبيعها بأسعار مخفضة ! !

وقد قررت مصانع هنجوان إنشاء مصنع آخر للنسيج فى مدينة سيان . فأقامت بناية وجلبت الآلات ، ولكن الإدارة لم تجد فى سيان ما يكفى من العمال والخبراء الفنيين . وكان جلبهم من المنطقة الصناعية الساحلية يقتضى رفع أجورهم . فلما عرض المدير مصاعبه على اللجنة الاقتصادية المالية ، قررت هذه أن تتولى المصنع بنفسها . وكان هذا نتيجة مباشرة لنظام إصلاح الأراضى ، فالفلاح ما كان ليهجر أرضه ويصبح عاملا مأجوراً . وقد اتسعت تجارة الحكومة فى نفس الوقت ، وأصبحت تتناول نسبة هائلة من الإيراد والتصدير . فالشركات الحكومية التجارية تدير ٤٠ — ١٠٠ فى المئة من المتاجرة بالجملة فى الحبوب والفحم والبضائع القطنية والملح والسكر والحديد والخشب والأسمنت ، كما تتولى الدولة والتعاونيات نحو ٣٠ فى المئة من التجارة بالقطاعى . ومعظم المصانع الكبرى متعاقد مع الحكومة لبيعها جميع ما ينتجه .

وهكذا فإن الاقتصاد الصينى ليس اقتصاداً مختلطاً ، بل هو اقتصاد تسيطر فيه الدولة على المشاريع الخاصة والمستقلة لتستغلها فى خدمة أغراض الدولة . إن الدولة ، بتقنين الإنتاج والمواد الخام ، ومراقبة النقد ، وفرض الضرائب على التجارة والصناعة ، وتنظيم توزيع الأرباح ، ترغم المؤسسات

الخاصة والمستقلة على أن تكون مجرد وكالات ملتزمة لمصالح الحكومة . وهكذا يضيق المجال تدريجاً أمام التجارة الخاصة المستقلة . وقد أصيب التجار المستقلون بضربة قاصمة أثناء حركة سن فن ووفن ، حينما فرضت عليهم غرامات فادحة ، فانكمشت أعمالهم التجارية وضاع كل أمل لهم فى المستقبل . ويسمى « ماوتسى تونج » الطبقة البرجوازية الوطنية الطبقة الرجعية الباقية التى سيجرى تهذيبها وتقويمها بمعونة الجيش والبوليس والمحاكم ، حينما يحين وقت تحقيق الاشتراكية . ومن الواضح أن المنطق الشيوعى قد حدا بماوتسى تونج إلى وجوب تصفية البرجوازية خلال عامين من تاريخ التحرير .

وقد أعلنت الصين مشروع خمس سنوات ، لرفع مستوى معيشة الشعب ، وهو يهدف كما يقال إلى تنمية الصناعة الثقيلة وجعل الزراعة آلية . بيد أن القليل الذى رأيته فى الصين يكفى لإثبات افتقار البلاد إلى الموارد الفنية والرأسمال اللازم ، وعجزها عن تحقيق ذلك بدون مساعدات أجنبية .

إن مشكلة الصين تقتضى رفع مستوى معيشة الشعب من الحضيض ، وتوفير فرص العمل والرأسمال والخبرة الفنية ، وفوق كل ذلك ضمان استعداد الشعب لبذل تضحيات أخرى .

ولا شك أن الدكتاتورية تستطيع أن تفرض على الشعب أعباء ثقيلة ، ولكنها مضطرة إلى أن تضمن له بعض الفوائد وبعض التحسين فى مستوى معيشته ، وأن تنميه بالوعود ، وأن تخلق له عدواً وهمياً يصرفه عن التفكير فى شقائه .

هذا ولم تستطع أية دولة فى بلدان آسيا المتأخرة أن تُكره الشعب على التضحية والحرمان بأمل التحسين فى المستقبل . فإذا لم تتعاون هذه البلدان فى ود وسلام ، ولم يشارك بعضها بعضاً فى ما لديها من موارد فلا تقدم اقتصادى ولا تحسن فى حياة الشعب ؛ وخاصة أنها فى حاجة ملحة إلى المساعدات الأجنبية ، لقلة ما لديها من أموال وأجهزة .

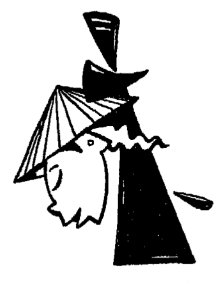
ولقد اختارت الصين الشيوعية أن تسلك سبيلا آخر . وهى تستطيع مؤقتاً بنظامها الدكتاتورى أن تموّل جهازها الإدارى الكبير وجيشها الضخم ، وأن ترمم اقتصادها المحطم عن طريق إرهاق الشعب . ولكن أعمال السخرة الرخيصة لا تسمن ولا تغنى من جوع . ومن ثم تضطر الصين إلى استخدام الدعاية لمحاربة شكوك الفلاحين المتفاقمة . وقد جعلت من أمريكا عدواً توجه إليه نقمة شعب وادع لتصرفه عن التفكير فى شقائه . بيد أن الحرب الكورية قد بدأت تقلق ذلك الشعب ، ولا بد من القيام بحملة جديدة يتلهى بها الشعب . وقد توجه على الأرجح ضد الفردية أو « الرجعية» التى تنشد السلام والسعادة ، أو الفلاح الذى يود الاحتفاظ بأرضه . بيد أن هناك حدوداً لطاقة الناس على الصبر والاحتمال . فهل سينهض الصينيون فى سبيل الدفاع عن حريتهم ، أم هل ستقودهم « دكتاتوريتهم الديمقراطية» إلى المغامرة فى بلدان آسيا الجنوبية الشرقية لكى ينسوا آمالهم ؟ أنا أعتقد أن الصين الشيوعية ستحاول فى النهاية اكتساب العشرة ملايين صينى المقيمين فى جنوب شرقى آسيا كحلفاء لها يخدمون غاياتها .

الجزء الثالث

السلام العظيم

الفصل الأول

غسل العقول



تعتمد الشيوعية على التسليم الأعمى وعلى عقل لا يسأل . ولذلك فمن أهم عوامل السيطرة الفكرية عندها غسل العقول ، أو دفع جميع الشكوك ومصادر المعرفة وحق التفكير ، داخل قالب واحد يدّعى أنه الحقيقة الخالصة المجردة . ولذلك تحاول الصين الشيوعية السيطرة على التربيــة والتعليم ، بحيث يصبحان وسيلة لتحقيق أهــداف الثورة الجديدة . وهى مهمة هائلة تتناول تغيير خصائص الشعب التقليدية . فالصين اعتنقت ومارست منذ أجيال فلسفة فى الحياة تدين بالتساهل واللين والدعة ، وكان العالم الصينى عنوان التأمل العميق والحياة الوادعة وتفهم أبناء جنسه . أما اليوم فقد انقلبت الصين إلى أمة قاسية متزمتة ذات تعاليم جامدة مقررة . ولقد لمست هذه القسوة فى دار حضانة الأطفال الذى تديره السيدة صن يات ــ سن فى

شنغهاى . كان فيه أكثر من مائتى طفل بين الثالثة والسابعة ، ساروا أمامنا فى استعراض يمثلون فيه جيش التحرير ، وقد صوبوا بنادقهم الخشبية إلى الطائرات الأمريكية الوهمية فوقهم ! ! . . كانوا يتعلمون البغضاء والقتل ، والمحبات الخمس — وهى محبة الوطن ، ومحبة الشعب ، ومحبة العمل ، ومحبة العلم ، والعناية بالأملاك العامة . ولم يكن بينها محبة الوالدين والأسرة ، ولذلك كانوا يحنون إلى العطف ، فأقبلوا على الزوار يلتمسون عندهم التدليل والتقبيل ، والدموع تترقرق فى مآقيهم .

ولمست القسوة كذلك فى أماكن أخرى — فى جماعات الأطفال الذين احتشدوا حولنا ، وفى وجوه الرجال والنساء المتجهمة التائقة إلى شىء من الود والعطف . وبعد أن كان المواطن الصينى معروفاً بابتسامته حتى فى أقسى ظروف الفقر والحرمان ، فإن الابتسامة لا تعرف اليوم طريقها إلى شفتيه ، وحتى بكاء الطفل أصبح أشبه بصرخات الفزع والغضب . فهو يُلقن الشيوعية وهو فى مهده . وشاقنى أن أدرس أساليب التربية المتبعة فى جميع المراحل والأعمار ، فزرت المدارس الثانوية ومدارس العمال والفلاحين المتوسطة والجامعة الشعبية . وكانت المدرسة المتوسطة الثامنة فى بكين تضم ٩٠٠ طالب من أبناء العمال والفلاحين ، بينهم ابن كومو— جو نائب رئيس الوزراء . وقد ألغيت فيها كتب التدريس القديمة والمناهج وأصول التعليم ، لأن المدرسة « إنما تخدم مصلحة الشعب ! » وتتبع النظام

السوفياتى ! . فالطلاب جميعاً أعضاء فى منظمة الشباب أو الرواد الأحداث ويساهمون فى النشاط السياسى . وسأل أحدنا أحد الطلاب : ماذا تفعل لو هاجمت روسيا السوفياتية الصين ؟ فأجاب من فوره : لن يحدث هذا أبداً . وسئل : من كان كنفوشيوس ؟ فأجاب : كان فيلسوفاً إقطاعياً عتيقاً ! !

وقد خفضت مدة الدراسة المتوسطة فى مدارس العمال والفلاحين من ست سنوات إلى ثلاث . وفى الصين أربعون مدرسة من هذا النوع ، سجل فيها ١٥,٠٠٠ من العمال والفلاحين الذين اشتركوا فى الثورة ، يتعلمون بالإضافة إلى القراءة والكتابة ، الماركسية والكيمياء والطبيعة وتاريخ الثورة ، وينامون فى قاعات نوم كبيرة ، ويُنتظر من كل منهم أن يكون رقيباً على أفكار الآخر . وبعد أن يتعلموا كتابة نحو ألف كلمة ، فإنهم يجبرون على الاحتفاظ بدفتر يوميات يدونون فيه مشاعرهم وأفكارهم ، فتستعرض المحتويات وتناقش فى جلسات عامة ، حيث يتم تطهيرها من الآراء الخاطئة ، وهكذا تبتدئ عملية غسل العقول .

قال « ماو تسى تونج » عام ١٩٥١ : « إن سكب العقول فى قوالب جديدة عامل هام فى تنفيذ الإصلاحات الديمقراطية » . وقد نفذت هذه العملية على خمس مراحل ، أولاها مرحلة الانتقاد الذاتى ، التى بدأها « تشو ان — لاى » بنفسه . والثانية تعلم التمييز بين الأصدقاء والأعداء ، ووضع خط فاصل حول الأفكار الرجعية ونبذها نبذاً باتاً . وتشتمل

المرحلتان الثالثة والرابعة على تلقين آراء « ماو تسى تونج » حول الشيوعيـــة والاقتصاد الصينى . وفى المرحلة الخامسة يُدْعى المرء إلى تقديم تقرير عن استنتاجاته الخاصة ، وبذلك يخضع لتمحيص إضافى . وبهذه العملية تم إعادة توجيه الأساتذة والكتاب وسائر رجال الفكر . ولقد التقيت ذات يوم بأستاذ فى الاقتصاد ، كان يحاول أن ينسى كل ما اكتسبه فى جامعة أكسفورد . واعترف أستاذان من أساتذة الفلسفة هما الدكتور فونج والدكتور لانج بأن فلسفة الصين القديمة فلسفة إقطاعية بالية ، واستنكرا كل ما كتباه سابقاً ، وأخذا يتعلمان فلسفة الشيوعية المادية ! ! !

وسألت « كومو — جو » مرة عن الحرية الفكرية فى الصين فأجاب : « إن الكاتب الصينى حر فى التعبير عن نفسه ما دام يخدم مصلحة العمال والفلاحين والجنود الذين يؤلفون أكثرية الشعب » . وقد رأيت عملية غسل العقول تُطبق بشدة فى الجامعة الشعبية التى يرأسها « وو يو — تشنج » عضو اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى . والجامعة تأسست عام ١٩٥٠ ، وفيها ٢٨٠٠ طالب ، منهم ٢٠٠٠ من الموظفين وجد « مستواهم الثقافى » منخفضاً فأرسلوا لقضاء عام واحد فى الجامعة ، أى ليتلقوا المبادئ الماركسية التى يعبر عنها « بالثقافة » ! ! وكان منهاجهم الدراسى القصير يتضمن الاقتصاد والمالية والتجارة والتعاون والدبلوماسية وإدارة المصانع ، بيد أن ٧٠ فى المئة من وقتهم كان يُنفق فى التدرب على الإنتاج . وكان منهاج

الدراسة الكاملة يشتمل على نفس المواضيع مضافاً إليها الحقوق واللغة الروسية . وفى الجامعة شعبة خاصة تدعى « لجنة مناهج التعليم » ، تعنى ببحث مناهج التدريس وأساليبه المتبعة ومراقبة الأساتذة والطلاب . ولم نشاهد فى الجامعة سوى بعض الطلاب النموذجيين الذين اختيروا لمقابلتنا . وكان بينهم فلاح عمره ١٧ سنة خدم فى جيش التحرير ووقع أسيراً فى يد اليابانيين . وأرونا معرضاً من مصنوعات الطلاب ، فيه دفاتر اليوميات إياها . واعترف رئيس الجامعة بالنقص فى الأساتذة وكتب التدريس ومعداته . فكان الطلاب يعتمدون على ما يدونونه خلال الدرس ، وعلى ما دونه بعض الأساتذة الذين تخرجوا فى روسيا . وكان يتولى شؤون التربية رجال نالوا حظوة فى أعين الحزب . أما المؤهلات الجامعية فلا قيمة لها . فهذا عميد كلية الطب فى موكدن ، « رفيق » فى الخامسة والثلاثين لم يكمل دراسته الثانوية ، بل درس الطب « على يد أصدقاء أجانب خلال حرب التحرير » ! ! !

وزرت جامعات أخرى فى بكين ونانكين وتينتسن . فالصين متوفرة على تخريج شبانها لتسد حاجاتها فى الإدارة العامة وفى الدوائر العلمية والفنية . كانت هذه الجامعات موئلا للفكر الحر التقدمى . أما اليوم فقد صار طلابها يسيرون من الصباح حتى المساء على قرع الطبول ورنين الصنوج ، التى تدعو إلى النقمة على أمريكا والولاء لدكتاتورية الصين

الجديدة . وفى أثناء حركة سن فن وو فن وغيرها من الحملات ، أغلقت الجامعات والكليات أربعة شهور ، وانهمك الطلاب والأساتذة فى عقد جلسات مطولة ينتقد كل واحد فيها نقائص غيره ويعترف بهفواته ؛ وفى إحدى الجلسات وبخ الطلاب أستاذاً أجنبياً لأنه كان يختار مواضيع رجعية فى درس الإنشاء ! ! !

وذهبنا لزيارة الآنسة « وو » الأستاذة فى إحدى الكليات النسائية فى نانكين ، إذ كان أحدنا يحمل رسالة تعارف إليها . فقيل لنا إنها أرغمت على ترك الكلية فذهبت إلى شنغهاى – ولعلها أبت أن تخضع لعملية غسل العقول . واتصلنا بها فى شنغهاى ، فسمعنا على الهاتف صوت امرأة مضطربة فزعة اختصرت المحادثة فجأة . وسمعت بعد بضعة أيام أنها انتحرت ! ! ويبدو أن أستاذاً شهيراً فى علم الأحياء لاقى نفس المصير ، وكانت جريمته أنه كان يُعلم ويتقاضى مرتباً فى أكثر من كلية واحدة . ولذلك حملت الجرائد عليه ونعتته « بالنصاب » » ! !

وتبدأ الحياة فى المدارس والكليات بالماركسية وتنتهى بالماوية ، فما سوى ذلك إلا سفسطة وهراء . وقد رأيت أهم الوظائف الحكومية يحتلها شبان تخرجوا حديثاً . فهم لا يبالون برغبة التخصص فى الطب أو الهندسة ؛ فالبلاد بحاجة إلى خدمات جميع المتعلمين ؛ والتعليم العالى لا يظفر به إلا القلائل ، ففى جامعات الصين كلها لا يوجد اليوم أكثر من ٣٥,٠٠٠ .

والتعليم مجانى فى المدارس والكليات كما كان فى عهد الكومنتانج . وهناك سلطة مركزية خاصة تختار من أنحاء البلاد من ترى صلاحيتهم لدخول الجامعات . أما مستوى التعليم فيها ، فمنخفض ، وكثيراً ما يضطر الطلاب إلى دراسة ما ينجم من مشاكل الزراعة والصناعة ، على حساب الأبحاث العلمية والدروس النظرية الأساسية .

وقد سمعت ادعاءات عن القيام بأبحاث ذرية فى سنكيانج ، كما سمعت إشاعة مؤداها أن العالم الذرى البريطانى الدكتور « برونو بونتكورفو » يعمل هناك ، بعد أن فر من الغرب فى أثناء إجازته فى إيطاليا . ولكن هذا الحديث عن العلم والأبحاث والاختراعات إنما هو حديث خرافة ! ! . فلا تربية ولا تثقيف حقيقى ، بل مجرد تلقين وتوجيه فى سبيل تمجيد الشيوعية . وقد اكتشفنا بعد عدة أيام أن المترجمة التى كانت ترافقنا كانت من خريجات جامعة كولمبيا ، فسألناها : هل سررت بإقامتك فى أمريكا ؟ فقالت : « لقد كرهت كل دقيقة قضيتها هناك » . ولما وصلنا نانكين اقترحت السيدة بانديت عليها ، أن تذهب لزيارة والديها اللذين لم تزرهما منذ أكثر من عام ، فرفضت أن تترك السيدة بانديت بمفردها ، رغم أن هذه وعدتها بعدم مغادرة الفندق فى أثناء تغيبها .

وكان مترجمنا فى أحد الأيام السيد تشانج ، وهو خريج كلية شنغهاى يتقن الإنجليزية ويلم ببعض الفرنسية . وكان طيلة الوقت مترمتاً جامد

العاطفة لا يبتسم ولا يمزح . وكان اليوم حاراً فى كانتون ولم نستطع النوم لكثرة البعوض. فلما جلسنا لتناول طعام الإفطار ،قال له أحدنا على سبيل المزاح « لم أنم لحظة فى الليلة الماضية ، فقد ظل البعوض طوالها يمتص دمى ، وكأنه من أصحاب الأملاك الإقطاعيين » ، فاغتاظ تشانج إذ لم يبق فى الصين أصحاب أملاك إقطاعيون ، وأجاب محتداً « لا تقل أصحاب أملاك إقطاعيين ، بل مستعمرين معتدين أمريكيين » !

وهناك حقل واحد من حقول التربية قامت فيه الصين بمجهود يذكر ، هو حقل مكافحة الأمية التى كانت مشكلة عويصة . وقد تقدمت فيه تقدماً محسوساً ، إذ قامت بتبسيط اللغة الصينية بحيث صار فى إمكان من يستوعب ٨٠٠ — ١٠٠٠ كلمة أن يقرأ الجرائد المبسطة ويتفهم شيئاً عن بلاده . وقد تعلم أفراد جيش التحرير القراءة والكتابة فى أثناء تنقلاتهم. وتقام صفوف مكافحة الأمية فى المدن والقرى . أما توجيه عقول الشعب فإنه مهمة جسيمة ، إذ ليس التزمت وعدم التسامح من تقاليد الصين . وقد قبل كثير من الأساتذة ورجال الفكر عملية غسل العقول وما رافقها من إرهاب ، على أمل أن يستطيعوا خدمة بلادهم .

ولقد أصبحت الحياة فى الصين جدية ، والشبيبة تستعد للاضطلاع بأعباء الأمة ، متوفرة على تفهم الشيوعية نظرياً وعملياً . وقال أحد الإنجليز المطلعين فى شنغهاى : « لم أشهد خلال ٢٨ عاماً ما أشهده الآن من إقبال

على العلم منقطع النظير . إن الطلاب الكبار يساهمون فى التعليم فى صفوف مكافحة الأمية ، بينما يتولى الصغار تعليم الصفوف الابتدائية » . وأقول أنا إنى رأيت هؤلاء الشبان يسيرون بأعلامهم مسافات طويلة إلى أحداجتماعات سن فن أو ما أشبه ، ولمست فيهم روح الطموح والعزم والتصميم . وراقبتهم وهم يقضون الساعات الطوال فى كتابة يومياتهم لرفعها إلى رؤسائهم . ولكننى لم ألمح فيهم سيماء السعادة وأمارات الغبطة . إن شبيبة الصين تدرك أن المستقبل لها ، ولكن لا مكان لها فى ذلك المستقبل إلا إذا أصبحت آلة صماء فى جهاز دولة دكتاتورية .

الفصل الثانى

الإصلاح بالعمل



نشرت الصحافة الديمقراطية تهماً خطيرة حول قيام حكومة الصين الشيوعية بتصفية ملايين البشر . وقد اعترف « ماو تسى تونج » فى خطاب أمام اللجنة التمهيدية لمؤتمر الشعب السياسى الاستشارى ، بأن جيش التحرير قضى خلال ثلاث سنوات ، على ٥,٩٠٠,٠٠٠ من أفراد جيوش الكومنتانج الرجعية . ثم أضاف : «أن فلول جيش الكومنتانج فى الوقت الحاضر ، بما فيها القوات النظامية وغير النظامية والمنظمات والمدارس العسكرية ، تبلغ نحو مليون ونصف المليون . وسيحتاج القضاء عليها بعض الوقت ، ولكنه لن يكون طويلا » . وقال رئيس الوزراء فى سبتمبر ١٩٥١ إنه قد تمت تصفية ذلك المليون والنصف ، فلا غرابة فى أن تأتى فى أعقاب مثل هذه الاعترافات اتهامات بالقيام

بمذابح إفناء جماعية .

وقد قرأت وأنا فى بكين عام ١٩٥١ أنه تُجرى فى كانتون محاكمة ٦٧٦ رجعياً أمام محكمة الشعب . وكانت الجرائد المحلية لا تنشر عن تلك المحاكمات إلا معلومات مقتضبة ، فأحببت استبقاء أكثر ما أستطيع من المعلومات عنها بنفسى . كانت فلول جيش الكومنتانج قد تفرقت أيدى سبا وأخفت أسلحتها ، وانضم بعض أفرادها إلى الجمعيات السرية المنتشرة فى البلاد . وساعدهم فى الجنوب الإقطاعيون الذين فقدوا أراضيهم . وأصدرت الحكومة الجديدة مرسوماً تأمر فيه أعضاء الكومنتانج أن يبادروا إلى تسجيل أنفسهم ، وتعهدهم بمعاملة حسنة مقابل ذلك . وقاوم الإقطاعيون نظام إصلاح الأراضى بجنودهم الخاصة ، فاضطرت الحكومة إلى القبض على الكثيرين وإعدامهم بالرصاص . وكان «ماو تسى تونج» قد صرح عام ١٩٤٩ أن مهمة حكومة الشعب آنذاك ، كانت تعزيز جيش الشعب وبوليس الشعب ومحاكم الشعب « لأن هذه الهيئات هى الأدوات التى تضطهد بها إحدى الطبقات طبقة أخرى » وأضاف « ولن نصطنع الرحمة مع الرجعيين ومناوئى الثورة ، فإنما تقتصر سياستنا الإنسانية على الشعب وحده» . ويُفهم من هذا أن الحكومة كانت تنوى إفناء أية طبقة خارجة عن مفهوم كلمة « الشعب» ، إما بالإعدام وإما بالإصلاح عن طريق العمل . وقال « ماو تسى تونج » فى هذا الصدد «أما الذين ينتسبون إلى

جماعات أو طبقات رجعية ، فسنمنحهم أرضاً وعملا ليصلحوا أنفسهم . فإذا أبوا العمل ، فإن دولة الشعب سترغمهم على ذلك » .

فالتصفية إذن لا تعنى دائماً الإعدام . ومعناها فى الاصطلاح الصينى إبطال المفعول . فنى محاكمات كانتون المشار إليها حُكم على ٢٢ بالإعدام ، وعلى ١١ بالإعدام المؤجل إلى ما بعد عامين ، وأطلق سراح ١٦ ، وحُكم على الباقين بالسجن فترات مختلفة . وكان التحقيق كله فى أيدى دائرة الأمن العام ، فهى التى تجمع البيانات وتطلب من المتهمين الاعترافات ومن الشعب تقديم الشكايات ، وتعد الاتهامات ، وتوصى بالعقوبات . ثم تُرفع القضية إلى لجنة خاصة تقرر نوع العقوبة ، وبعدها تُعقد المحكمة ويتقدم الشهود . ولا يُسمح للمتهم بالدفاع عن نفسه أمام المحكمة ، إنما يسمح له بذلك أثناء التحقيق . وما المحاكمة العلنية سوى أداة للدعاية توحى بالرعب والطاعة . أما أحكام السجن فتؤدى إلى معتقلات السخرة التى تُدعى معتقلات الإصلاح بالعمل ! !

وقد اطلعت وأنا فى نانكين على مقالة عن أحد المعتقلات اسمه «مزرعة تشنج ها لمقاومى الثورة » ، ترجمها لى المترجم الرسمى وهى كما يلى : « أنشأت مديرية الأمن العام مزرعة تشنج ها منذ عام لإصلاح مقاومى الثورة ، وقد حققت نجاحاً ملحوظاً فى هذه الفترة الوجيزة ، لا اقتصادياً فقط بل سياسياً أيضاً ، لأن الكثيرين من المجرمين عدّلوا أفكارهم الرجعية

بالاشتراك فى الأعمال المنتجة . وقد أبدوا نشاطاً فى العمل وتابوا وقلبوا صفحة جديدة فى حياتهم . وقد أقيمت المزرعة على أرض بور غير مفلوحة ، فإذا بهم ينشئون بها ٨ قرى جديدة و ٢٥٠٠ غرفة ، وقد حفر نزلاؤها ترعة طويلة وبنوا محطة لتوليد الكهرباء ، وأخرى لتوفير الماء اللازم للرى ولديهم الآن أجهزة تليفونية ، ومستشفى ، وفرقة هندسية ، وأخرى للنقليات ، ومخبز ، ومضرب أرز ومصنع للآجر إلخ . وكان الكثيرون منهم عندما جاءوا لا يعرفون أية صناعة من الصناعات ، بل كانوا يمقتون حتى فكرة العمل ، فيتمارضون ويحاولون التهرب والزوغان . بل لقد عمد البعض إلى التخريب الجنائى ومساعدة الآخرين على الفرار . ولكنهم بالعمل والتربية أصبحوا الآن يعترفون بجرائمهم ويصلحون أنفسهم ، حتى إن البعض يرفض مغادرة المزرعة عند انتهاء مدته ويؤثر البقاء ليعمل فيها » .

فكيف تم كل هذا ؟ باتباع المبدأ القائل بأن الإصلاح السياسى يجب أن يرافقه الإصلاح بالعمل . ولقد كان تغيير عقولهم وتثقيفها عملا شاقاً . فلما أخذوا يفسرون لهم مبدأ « ماو تسى تونج » عن ديمقراطية الشعب الدكتاتورية وعن طريقة إصلاحهم بالعمل ، بادروا إلى المقاومة ، وبكى البعض ، وأضرب الآخر عن الطعام ، ومنهم من حاول الفرار أو الانتحار . على أنه ليس من السهل دائماً إصلاح مقاومى الثورة بهذه السهولة ، فلا يزال القليلون يعمدون إلى التخريب والإخلال بالنظام .

فيبينون لهم الفرق بين العقاب والثواب . أما الذين يسرعون إلى إصلاح أنفسهم فإن مدة العقوبة تخفض . وقد تم إلى الآن إطلاق سراح مئتين من أولئك المجرمين المستصلحين . والذين يبدون تحسناً كبيراً يثابون مادياً وروحياً ، أما الذين لا ينجزون أعمالهم ، أو يرفضون الإصلاح بالعمل أو يحاولون الهرب أو التخريب ، فإنهم يعاقبون . وهذا « توشيه — تشن » الذى تزعم ستة مجرمين حاولوا الفرار ، ألقى القبض عليه وأعيد إلى المزرعة وأعدم علناً أمام السجناء !

وهذه المقالة مثال طيب للصحافة الصينية ، وقد أثبتها هنا بإسهاب إذ تبدو بين السطور الأخبار الحقيقية عن المقاومة وأشغال السخرة والانتحار . والجرائد لا تنشر الأنباء ، لأن الصحف وكالات دعاية للدولة ! . وقد كنت مستعداً لقبول ما ادعته المقالة ، ولكنى طلبت من المترجم أن أزور إحدى تلك المزارع الإصلاحية ، فلم أظفر منه إلا بالصمت . ويبدو أن خطر مقاومة الثورة ماثل دائماً . ولعلهم يتذرعون بإذاعة الخطر لقمع كل معارضة محتملة فى البلاد . ولما كان « البرنامج العام » هو دستور الدولة ، فإن أى اعتراض وانتقاد يعتبر بمثابة خيانة . والإرهاب هو أقوى سلاح فى يد الدكتاتورية ، تستعين به على إخضاع الشعب ، ولذلك بات من المألوف أن تسمع كل يوم أنباء الاعتقال والاختفاء والانتحار.

وكانت تجرى فى بكين فى ذلك الوقت محاكمة أخرى ، اتهم فيها ثلاثة

إيطاليين وألمانى وفرنسى ويابانى وصينى بالتآمر على نسف الساحة العامة فى أول أكتوبر ١٩٥٠ بمن فيها من الزعماء أثناء الاحتفال . وكان أحدهم مطراناً كاثوليكياً وقاصداً رسولياً من قبل البابا . وقيل كالعادة إنهم اعترفوا جميعاً بجريمتهم رغم غرابة تلك التهمة . وهذه الاعترافات كاعترافات موسكو إنما هى ابتداع إرهابى يجبر الضحايا على الإشادة بمديح جلاديهم . قبض على المتآمرين المزعومين فى ٢٦ سبتمبر ١٩٥٠ ، وظلوا ١١ شهراً يعانون الأمرين على أيدى بوليس التحقيق . ثم قدموا للمحاكمة أمام محكمة عسكرية ، وصدر الحكم فى ١٧ أغسطس ١٩٥١ . ولهذين التاريخين علاقة بدخول الصين فى الحرب الكورية ، إذ قررت التدخل فيها فى سبتمبر ١٩٥٠ ، فأخفقت مفاوضات كيسونج فى ٢٣ أغسطس ١٩٥١ . وقد تسلمت نسخة عن الاتهام والحكم فى تلك القضية ، فلم أجد فيها ما يثبت التهمة ، كما لم أقتنع بأن الأوراق التى زعموا وجودها مع المتهمين كانت أصيلة . وفيما يلى رسالة زعموا أنها تثبت العلاقة بين الملحق العسكرى الأمريكى وكبير المتهمين .

بكين فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٩

عزيزى تونى

تفضل أنت و « ى » إلى منزلى يوم الجمعة فى ٢ ديسمبر ، لتناول طعام الغداء فى الساعة ١٢,٤٥ ، وقد قبل المستر كلاب الدعوة وسيحضر.

اعتذر عنى للسيد « ى » لأنى لم أرسل إليه دعوة خاصة .

إنى قلق بسبب إرسالك المواد المصنفة إلىّ بهذه الطريقة ، فهل تراها أنت أمينة ؟ إن رسالة تؤخذ من غلامك تسبب لنا مشاكل جمة . إن المواد ثمينة جدًّا ، ويسرنى أن أتسلمها .

المخلص

ديف

أنا لا أصدق أن إنساناً لغته الأصلية هى الإنجليزية ، يكتب مثل هذه الرسالة الركيكة ، التى هى أقرب إلى الأسلوب الصينى . وكانت الإدانة بعيدة الأثر ، لأنها تتناول كافة الأجانب المقيمين فى الصين ، وعلى الأخص رجال الدين الكاثوليكى ، الذين هوجموا أكثر من غيرهم ؛ وخاصة أن زيارة الكردينال سبلمان للسيد « يوبين » مستشار تشيانج كاى ــ شك ، وإنشاء كنيسة جديدة ، قد سرا بأنهما أعمال مضادة للثورة ، لأن الكنيسة الكاثوليكية كانت قد أنذرت بأن الشيوعية تهدد الدين . ومع أن الكنيسة لم تشترك فى المقاومة ، إلا أن نفوذها ورطها فى تلك الحركة ، مما حفز شيوعيى الصين إلى التدخل فى الدين واضطهاد رجاله .

وفى الصين اليوم نحو سبعين من الأجانب ، يعيشون فى السجون دون أن يدروا حقيقة جرائمهم . ولن يحاكموا بعدالة ، ولن يسمح لهم بالدفاع

عن أنفسهم . فقد جاء فى المادة السابعة من البرنامج العام أنه يجب قمع جميع مناهضى الثورة . ومن الواجب مراجعة الاتهامات وتدقيقها . وقد رأيت مثل هذا التحقيق والتدقيق فى شنغهاى ، حيث اتهم عامل كهرباء بمقاومة الثورة . ودُعى زملاؤه الحاقدون عليه إلى الشهادة ضده . وكان مما أيد التهم أنه أصغى إلى إذاعة صوت أمريكا .

ذلك هو مصير المتهمين بمقاومة الثورة والتجسس . ولكن ما هو حظ المواطن العادى ، وهل يحميه حكم القانون ؟ . إن من مميزات الديمقراطية الأساسية أن القانون يحمى حقوق الفرد . أما فى الصين فلا حقوق للفرد إلا بصفته عضواً فى جماعة . والدولة هى الكل فى الكل ، ولا قيمة للفرد ولا وزن . والسلطة القضائية خادمة للسلطة التنفيذية ، وغير منفصلة عنها . ولذلك نجد رئيس المحكمة العليا عضواً فى الحكومة ، وكثيراً ما يُكلف بتنفيذ مهام سياسية . والقانون يخضع للسياسة لا لاعتبارات العدل والحق . وليس من الضرورى أن يلم القاضى بالقانون وعلم الحقوق ، بل يكفى أن تثق الدولة بولائه السياسى . ولا تتبع المحاكم إجراءات رسمية ، ولا تحتفظ بسوابق ترجع إليها . ولا توجد كتب للقانون ، كما لا يوجد محامون يتولون الدفاع والمرافعة . وتتألف هيئة المحكمة من رئيس ، وممثل عن الطبقة التى ينتمى إليها المتهم ، ومسجل . وقد ألغيت جميع القوانين السابقة ، وأصبح دستور الدولة الآن مؤلفاً من قانون الزواج ، وقانون النقابات ، وقانون

إصلاح الأراضى ، والبرنامج العام . ويحق للجمهور فى قاعة المحكمة أن يشترك فى الإجراءات وأن يتقدم كشاهد ، وأن يقذف بالتهم ويطالب بأقصى العقوبة .

وأذكر فى هذا الصدد أننى حضرت قضية طلاق فى محكمة الشعب فى بكين . فقد طلبت الزوجة الطلاق بحجة أن زوجها يسىء معاملتها . فاستدعت المحكمة الزوج وأخذت تدعوه إلى إعادة التفكير فى الأمر : هل لك آراء إقطاعية ؟ يجب أن تساعد زوجتك على تثقيف نفسها بدلا من أن تسىء معاملتها . وهكذا ظلت المحكمة تضيق الخناق على الزوج إلى أن أسقط الزوجان القضية .

أما فى نانكين فكانت قضية قتل ، اتهمت فيها الحماة بدفع ابنة الزوج إلى الانتحار . واتهم الزوج بأنه خانع لزوجته السليطة فلم يقو على منعها من سوء معاملة الإبنة . وقد اهتم الجمهوز بالقضية فاحتشد قوم غفير فى قاعة المحكمة . وتلا القاضى التهم والبينات ، ثم تقدم أفراد من الجمهور بتهمهم . ولم يسمح للمتهمين بمناقشتهم ، وإنما بإنكار التهم فقط . وتهالك الزوج أخيراً واعترف بأن زوجته أساءت معاملة الإبنة . ثم نهضت ممثلة عن منظمة المرأة الديمقراطية ، فألقت خطاباً على المحكمة حول الإصلاح الاجتماعى ومركز المرأة والأسرة . وحكم القاضى على الحماة بالسجن ١٥ سنة ، وعلى زوجها بالسجن سنتين .

وحضرت فى شنغهاى قضية ثالثة ، وكانت قضية قتل اتهمت فيها امرأة قاسية بقتل خادمتها . وكانت الجريمة قد اقترفت فى عهد الكومنتانج ، وقد برأ البوليس ساحتها . فأثيرت القضية من جديد وهرع الجيران إلى الشهادة ضدها. وجاء فى عريضة الاتهام أن ابن المتهمة كان مخبراً لليابانيين وجاسوساً للكومنتانج . ولا علاقة لذلك بالقضية ، ولعلها أوردت للاشتباه فى أن المرأة كانت من مناهضى الثورة . وأنكرت المرأة التهمة دون مناقشة الشهود .

ولقد أقنعتنى هذه المحاكمات بعدم وجود فاصل بين عمل المحققين وعمل القاضى . ومما يزيد فى مشاكل المتهم أنه يعتبر مجرماً إلى أن تثبت براءته . ولما كان لا سلطة للقانون فإن المرء لا يظفر بعدل قائم على حجة أو بيِّنة .

الفصل الثالث

سن فن ووفن



واجهتني لدى عودتى إلى الصين فى رحلتى الثانية موجة عنيفة كانت تجتاح البلاد نازلة من الشمال . وقد رأيت وقعها وأنا فى كانتون ، أمر بالمخازن المختومة بالشمع الأحمر وعليها إعلانات رسمية بمخالفتها للقانون .

ورأيت جمهوراً يهتف أمام أحد المخازن ، فهرعت والمترجم لا يفارقنى لأرى ما هنالك ، وإذا بصاحب المخزن راكع على الأرض مطرق الرأس أمام موظفيه . فسألت ماذا يجرى هنا ؟ فقيل لى : اجتماع . قلت : وأى نوع من الاجتماع ؟ فلم أظفر بجواب ! !

ورأيت تحت شجرة على طريق النهر نفراً من الفتيات والفتيان يتناقشون وفى أيديهم الدفاتر والأقلام . وفهمت أنهم من طلاب مدرسة

مجاورة ، وقيل لى إنهم يدرسون سن ووفن ، أى « مكافحة الثلاثة ومكافحة الخمسة » ! وأضافوا أنهم يتباحثون فى الفساد وحكم الدواوين والتلف . فقلت : أليس من التلف أن تهجروا دروسكم فى المدرسة وتأتوا إلى هنا لدراسة التلف ؟ فرد أحدهم : إن المدرسة مغلقة ، ثم إن هذا واجب وطنى . ورأيت ذلك اليوم مشاهد أخرى مماثلة — رأيت مواكب من الطلاب ومن العمال تسير بالأعلام على قرع الطبول . مواكب وطبول فى كل ناحية ، وقد وجد البعض الانتحار أخف وأهون مما كان ينتظرهم من العقاب على ما نسب إليهم من جرائم الرشوة والفساد . وقيل إنما هذا هو إعادة التسلح الأدبى ضد الفساد القديم ، يحمل طابع الاعتراف الذى يطهر النفس ، وسياسة الانتقاد الذاتى التى تنقى الضمير .

وكان قد تبين فى مطلع ١٩٥١ أن نشاط بعض أعضاء الحزب فى ولاية كيانجسى لم يكن من المرغوب فيه ، كما تبين أن مدير البوليس هناك ورئيس شعبة الدعاية وعدداً من أعضاء الحزب كانوا يحيون حياة فاسدة مستهترة ، فطردوا من الحزب . وفى أبريل اكتشفت مؤامرة بين موظفى الإيرادات ، وتبين أن ٣١ من صغار الموظفين اختلسوا نحو ٧ بلايين يوان (المليون يوان يساوى ١٦ جنيهاً) . كما تبين أن ١٧ موظفاً فى وزارة المواصلات اختلسوا ٨ بلايين يوان ، بينما اختلست جماعة أخرى فى الصين الشرقية عشرين بليون يوان . فشؤون الحزب إذن ليست كما ينبغى . كما

أن الاستئثار بالسلطة قد ولد التراخي والضعف ، وخبا حماس الثورة وأعقبه الحنين إلى ملاذ الحياة ، فأثار كوامن الفساد من جديد. واقتضت الضرورة اتخاذ إجراءات صارمة ، وصفها ليو شاو — تشى بقوله : « بالإضافة إلى النضال ضد العوامل المظلمة والرجعية فى المجتمع ، يجب أن نقوم بحملة داخل الحزب لتطهيره من جميع العناصر المترددة والضعيفة التى تسىء إلى سمعته . ونحن نحاول فى هذه الحملة أن نهذب وننتقد ونصلح أولئك الرفاق الضالين القابلين للإصلاح» وقد أشار كاو كانج [١] بضرورة حملة التطهير هذه فى خطاب ألقاه أمام زعماء الحزب فى منشوريا فى أغسطس ١٩٥١ فقال « تبدو خطورة الآراء اليمينية فى عدم فهم الاتجاهات الاقتصادية فى القرى بعد تطبيق إصلاح الأراضى . فبعض الرفاق يرى أن الفلاح لا بد أن يقوى بعد أن تحسنت حاله ، ولذلك ليس من الضرورى تنظيم إنتاجه على أساس التعاون المتبادل بحيث يتطور إلى تعاونيات . ويعتقد بعض الرفاق أننا لا نستطيع فى الوقت الحاضر وضع حد لنمو قوة الفلاح . إنهم لا يدركون أن واجب أعضاء الحزب فى القرى أن ينموا روح التعاون الزراعى ، فى سبيل الوصول بالفلاح تدريجياً إلى مرحلة المزارع الجماعية .

---

(١) كان « كاو كانج » رئيساً لحكومة المنطقة الشمالية الشرقية بالصين الشيوعية ، وكان بطلا من الأبطال الشيوعيين ، ولكن «ماوتسى تونج » طرده من الحزب لأنه انتقد حكمه . ومنذ أن طرد من الحزب تعرض « كاو كانج » لمعاملة قاسية دفعته إلى الانتحار فى عام ١٩٥٥ .

إنهم على العكس يظنون أنه بعد تحسن القرى يجب عليهم أن يستأجروا عمالا زراعيين وأن يصبحوا فلاحين أغنياء . إن هذا الاتجاه ينكر أن طبقة الفلاحين هى أفضل ما يعتمد عليه من طبقات العمال ،. وينتهى بطبقة العمال إلى التخلى عن دورها فى قيادة الفلاحين ، ويدل على التخاذل والخضوع للعناصر الرأسمالية فى القرى » .

وأيده «ماو تسى — تونج» بخطاب ألقاه فى الدورة الثالثة لمؤتمر الشعب السياسى الاستشارى فى أكتوبر ١٩٥١ ، فأكد ضرورة الاقتصاد وزيادة الإنتاج والانقلاب الفكرى ، ولام الرأسماليين أو البرجوازيين الوطنيين على التسرب فى الحزب وإفساده بالرشوة . وأردف « لقد اقترحت سابقاً اصطناع الانتقاد والانتقاد الذاتى . وهذا الاقتراح يجرى تطبيقه تدريجيًّا . إن إعادة التوجيه الفكرى ضرورى لتنفيذ الإصلاح الديمقراطى فى مختلف الميادين ولتصنيع البلاد » .

وهكذا بدأت حركة التطهير فى جهاز الحكومة ، وسميت « سن فن » أى مكافحة الثلاثة . ودعى كبار الموظفين إلى الانتقاد الذاتى والاعتراف ، بينما تقدم مرؤوسوهم بالتهم والبينات . وتعطل العمل فى دوائر الحكومة أربعة شهور ، توالت فيها جلسات فحص الضمير والاستجواب والاعتراف . واعترفت وزيرة العدل بولعها بالأزهار ، وبوضعها يوميًّا فى مكتبها على حساب الدولة . ومثل حتى « ماو تسى تونج . وشواين لاى كل أمام مجلسه ،

وانتقد أخطاءه . وتبين فى مطلع عام ١٩٥٢ أن ١٦٧٠ موظفاً فى ٢٧ دائرة كانوا فاسدين ، فدُعوا إلى الاعتراف بخطاياهم . وحُكم على من اعتبر قابلا للإصلاح منهم بغرامات وعقوبات خفيفة . أما من رفض الاعتراف ، أو اتهم بجرائم فظيعة ، فحكم عليه بالموت أو بغرامات فادحة أدت به إلى الفقر المدقع .

وظهر أيضاً أن موظفى إدارة بنك الصين ، كانوا يقبضون من التجار نحو عشرة ملايين يوان مقابل تزويد التجار بأنباء اقتصادية . وأعدم فى تينتسن اثنان من كبار أعضاء الحزب ، لأنهما اختلسا نحو ١٥٣ بليون يوان من الإيرادات العامة المخصصة لإغاثة اللاجئين وإنشاء المرفأ . وعقدت فى أول فبراير المحكمة الشعبية فى بكين لمحاكمة سبعة من كبار الموظفين وأعضاء الحزب ، بينهم « سونج ته — كواى » مدير المكتب الإدارى فى وزارة الأمن العام ، و « ماو ين » مدير مكتب الصحة فى السكك الحديدية ، و « لوتا » مدير صناعة الفولاذ . ورأيت فى شنغهاى شريطاً سينمائياً لهذه المحاكمة ، فذكرنى بأيام الثورة الفرنسية ، حين كان الشعب يحتشد ليهزأ بالمسوقين إلى المقصلة . كان جالساً على المنصة قاضى قضاة الصين ، و « بويى — بو » وزير المالية ، ورئيس تفتيش الدولة ، والرجل الذى نظم أول مقاومة فى حرب العصابات . وجىء بالمتهمين السبعة تحت حراسة قوية ، فوقفوا مطرقين وأيديهم خلف ظهورهم ، وقد تدلت من

أكتافهم إعلانات تصفهم بالمجرمين والخونة ، وجلس الجمهور ينتظر دوره فى كيل السباب والإهانات للضحايا .

قال « بوبى — بو » فى اتهامه إن أعمال المتهمين ألحقت بالدولة خسارة تقدر بنحو ١٥ مليون جنيه ، مما كان يكفى لشراء ١٨ مليون كاتى من الحبوب الغذائية لإطعام ٢٨٠,٠٠٠ نفس مدة سنة ، أو لشراء ٦٦ طائرة مقاتلة لحماية البلاد من الاستعمار الأمريكى . فهتف الجمهور مطالباً بدم الخونة . واستأنف « بوبى — بو » قائلا : لو انتشر هذا الفساد بهذا المقدار ، لحرم الشعب من مال يكفى لإنشاء عشرة مصانع عصرية يستخدم كل منها ٢٠٠٠ — ٣٠٠٠ عامل ، ولأسفر ذلك عن عرقلة تقدم البلاد الصناعى . وأفاض فى بيان الأدلة على جرائم كل من المتهمين . وكان يُقاطع من الجمهور بهتافات تطالب بأقصى العقوبة . وبدا أن الهتافات كانت مرتبة من قبل ، وكانت تنبعث من ناحية ، ثم من أخرى . بحيث ثار الجمهور إلى أقصى حد ، كما وضعت ترتيبات خاصة من شأنها تمكين أفراد الشعب من متابعة المحاكمة ؛ فكان هؤلاء الأفراد يتصلون بالمحكمة وهم فى منازلهم ، ويطالبون بعقوبة الإعدام .

وتعتبر المحاكم فى نظر الشيوعيين أداة لإثارة سخط الجمهور على المتهمين . ولا ينطق بالحكم إلا عندما تبلغ النقمة القمة . فإنما الغاية من المحاكمات العلنية هى إلهاب الحماس ، وإطلاق العنان لنقمة الرعاع على

« العدو » . فما إن جلس « بوبي – بو » حتى علا الصراخ ، وألقيت الحجارة والطماطم والبيض الفاسد على الضحايا الذين لم يجرأوا على النظر إلى الشعب. ولم يستجوب المتهمون ولم يسمح لهم بالرد على التهم. ونهض قاضي القضاة ونطق بحكم الموت على اثنين ، وبالسجن مدداً مختلفة على أربعة ، وببراءة ساحة واحد ، ماعتم أن جلس بين الجمهور واشترك بالتنديد بمن أدينوا .

وتبعت محاكمة بكين محاكمات مماثلة فى تينتسن ونانكين ووهان وشنغهاى وغيرها . فقد خفضت مرتبة سبعة من الموظفين فى إحـــدى المقاطعات ، لأنهم تزوجوا ببنات « إقطاعيين رجعيين مناهضين للثورة » . وأدين موظف بتهمة الإنفاق على ملابس أنيقة ليزهو بها أمام الوفود الأجنبية . وندد سائق سيارة بسيده الموظف ، لأنه أركب صديقته وأخذها إلى المرقص ! . وحُكم على سكرتير الحزب فى شنغهاى بتهمة السكنى فى منزل فخم فيه حوض للسباحة ، وعلى موظف آخر لأنه علق على لوحة الإعلانات فى مكتبه إعلاناً بفقدان قلمه ، إذ تسلم نتيجة لذلك خمسة أقلام باركر ٥١ من السماسرة الذين يتعاملون مع المكتب ! !

ولمست آثار ذلك التسلح الأدبى وتمحيص الضمير عند عودتى إلى الصين ، إذ لم أجد موظفاً واحداً يتحمل مسؤولية اتخاذ قرار ما ، فكان يحيل كل كبيرة وصغيرة إلى السلطات العليا ، بحيث أصبحت السلطة مركزية ، وتأخر العمل فى الدواوين ، نتيجة لانتظار ورود التعليمات من

بكين . بيد أن هذه الحركة لم يقتصر أثرها على إصلاح الحزب والجهاز الحكومى ، بل أخذ يشمل الأجانب ورجال الأعمال المستقلين . وكثيراً ما أكدت النظرية الشيوعية أن النزاع داخل الحزب ليس إلا انعكاساً لنزاع طبقى خارج الحزب . وكان « ليو شاو — تشى » مفكر الحزب قد فطن إلى ذلك الخطر منذ عام ١٩٤١ فكتب يقول « إن حزبنا منذ إنشائه لم يعش يوماً فى غير بيئة الصراع الشديد . فالحزب والطبقة العاملة الحاكمة كانت تعيش دائماً داخل طبقات غريبة عنها ، كالبرجوازية الكبرى والبرجوازية الصغرى والفلاحين وبقايا الإقطاعيين . وهذه الطبقات ، وهى تصارع الطبقة العاملة أو تتعاون معها ، تستغل العناصر المترددة داخل الحزب والطبقة العاملة لتتغلغل فيهما وتؤثر على ما فيهما من نظم العيش والعمل والتفكير » . وقال «ماو تسى تونج» فى يوليو ١٩٤٩ وهو يخاطب الحزب « من هو الشعب ؟ إنه فى الوقت الحاضر الطبقة العاملة والفلاحون والبرجوازية الصغرى والبرجوازية الوطنية . ولا بد من اتحاد هذه الطبقات لبناء الدكتاتورية الديمقراطية ، وإلا انهارت الثورة وخسر الشعب وفنيت الدولة ». هذا الاتحاد هو مايسميه الغرب بالجبهة الشعبية. والآن وقد نجحت الثورة ، فقد أصبح الاتحاد يعيق الشيوعيين ، فاحتاجوا إلى ثروة البرجوازية لمعالجة مشاكلهم الاقتصادية ، كما احتاجوا سياسياً إلى ثورة الطبقة العاملة لتثبيت دكتاتوريتهم . وبين الثورة وإنشاء دولة مستقلة ، جاءت دولة

مؤقتة ذات اتحاد مصطنع أنشأها شعب يائس لإنهاء حكم الكومنتانج . أما حركة « سن فن ووفن » فإنها تؤذن بانتهاء الثورة الديمقراطية وبإنشاء دولة شيوعية ، تماماً كما حل البلاشفة محل المناشفة فى الثورة الشيوعية الروسية .

وقد سخرت الدولة لهذا الصراع جميع مواردها، من صحافة وإذاعة وسينما ومحاكمات جماعية ومواكب واجتماعات وهتافات . ودعت عمال المتاجر والمصانع وربات البيوت والأبناء والخدم والطلاب إلى الشهادة ضد أرباب العمل والآباء والأزواج والأساتذة . وكان فى محاكمة أول فبراير إنذار خطير لطبقة البرجوازيين الوطنيين الذين قرروا أولا أن يعتصبوا ويدافعوا عن أنفسهم ، غير أن بعضهم أدرك مغبة ذلك ، فأنشأوا بدلا من ذلك من تلقاء أنفسهم حملة « وو فن » ، ومعناها مكافحة الخمسة ، لإزالة العناصر غير المأمونة بينهم . ولكن هذه الحملة اتسع نطاقها وأصبحت حرباً على خمس خطايا ، هى (١) الرشوة (٢) اختلاس أموال الحكومة (٣) غش الحكومة (٤) استغلال المعلومات الاقتصادية فى المضاربات الخاصة (٥) التهرب من دفع الضرائب . وكان على كل متجر ومصنع أن يخضع لسلسلة من الاعترافات والانتقاد الذاتى . وتألفت فى كل مهنة لجان للتحقيق مع مزاوليها ، وتفتيش أماكن العمل . وكانت الاعترافات تُقدم إلى اللجان فتحيلها على موظفى المتاجر وعمال المصانع للنظر فيها على ضوء معرفتهم لأرباب العمل . ثم تُعقد محاكم التفتيش ، ويُطلب

من الأبناء والزوجات والخدم أن يتقدموا بشهاداتهم على ما اقترفه المتهمون من جرائم حقيقية أو وهمية !

وأذكر على سبيل المثال القصة التالية :

كان فى تنتسن تاجر عاديات ، وكان له قبل الثورة فروع فى كبريات مدن العالم ، ولكنها استقلت عنه بعد الثورة . وطلبت الحكومة من ذلك الشيخ الذى ناهز السبعين أن يقدم حسابات كافة الفروع السابقة ، وأن يدفع الضريبة التى اتهم بمحاولة التهرب منها . فلما أعرب عن عجزه عن القيام بذلك ، زُج به فى السجن ، وطيف به فى أحد الأيام فى شوارع المدينة ، وحول عنقه حبل ويداه موثقتان خلف ظهره ، وعلى صدره لوحة تصمه بالإجرام . ثم أخلى سبيله لمدة شهر ، على أن يقدم خلاله كشفاً بحسابات فروعه ، وإلا حُكم عليه بالموت . واستلقى المسكين على فراش الموت ينتظر حتفه عند انتهاء المهلة .

وإليكم قصة أخرى :

اشترى تاجر صغير فى شنغهاى أسهماً فى شركة مساهمة بقيمة ٣٠ جنيهاً ولكنه لم يلبث أن ندم على ذلك . فقد حدث أن اتهم مدير الشركة بأنه تقاضى من الدولة أضعاف ما يحق له . وعندئذ فُرضت على الشركة غرامة فادحة اضطر المساهمون إلى المساهمة فى دفعها بحجة أنهم اشتركوا فى أرباح الشركة . وكان نصيب ذلك التاجر الصغير من الغرامة ألف

جنيه ! ولما لم يكن يملك ما يسدد به ذلك الدين ، فقد اضطر إلى بيع كل ما كان عنده ، وبأقصى سرعة ، لأن كل يوم تأخير يزيد فى مبلغ الدين . وقد رأيت أمام مصرف الشعب فى شنغهاى صفـًّا من الناس طوله ميل ، وكل منهم ينتظر دوره ليبدل ما عنده من عملة ذهبية ليتمكن من دفع الغرامات المفروضة عليه . وكان منهم من انتظر أياماً ليأتى دوره . وبهذه الوسيلة ابتزت الحكومة ما ادخره الشعب ، فبات التجار فى فقر مدقع لا يقوون على مواصلة أعمالهم . وقد سمعت أن الكثيرين منهم فضلوا الانتحار ، إما بإغراق أنفسهم فى النهر ، وإما بالقفز من فوق أسطح المنازل أو النوافذ . ويؤخذ من الإشاعات أن عدد المنتحرين فى شنغهاى وحدها بلغ بين ٢٠٠ و ٢٠٠٠ ، إذ لم يكن أحد يدرى ما يحدث فى مختلف أنحاء المدينة . أما فى كانتون فقد كان معدل حوادث الانتحار ٥ — ٦ يوميـًّا .

وقد صنفت الشركات والمتاجر التى كابدت حملة « وو فن » إلى خمس فئات ، وهى (١) الشركات المحافظة على القانون (٢) الشركات المحافظة على القانون أساسيـًّا أو مبدئياً (٣) الشركات المحافظة على القانون جزئيـًّا (٤) الشركات المخالفة للقانون (٥) الشركات الممعنة فى مخالفة القانون . وقد سُمح للفئة الثانية بالاحتفاظ بأرباحها إذا لم تتجاوز مليونى يوان (٣٠ جنيهاً) . وأجبرت الفئة الثالثة على رد أرباحها غير المشروعة

إلى الدولة . وفُرضت على الفئة الرابعة غرامة بالإضافة إلى رد تلك الأرباح. أما الخامسة فقد صدرت ضد أصحابها أحكام بالسجن وبالإعدام . وكانت الأحكام تُخفف بموجب الاعتبارات التالية : (١) الاعتراف التلقائى أى بمحض الإرادة . (٢) الاعتراف التام بعد اكتشافه المخالفة . (٣) الوشاية بالغير (٤) صغر السن .

وإن ما شاهدته ليس سوى لمحة من تلك الموجة التى اجتاحت رجال الأعمال والتجارة فى الصين ، وهم الذين ساهموا فى هزيمة تشيانج كاى ـ شك وفى التمهيد للثورة . لقد أثير الشعب وأطلق لثورته العنان . فما حركة « وو فن » فى جوهرها سوى نزاع طبقى أثاره الحزب المستأثر بالسلطة على شعبه بقصد القضاء على إحدى طبقاته . وقد أثير الشعب لكى يشعر بأن إرادته هى التى تُنفذ ، فيشترك على غير علم منه فى ما يجرى فى بلاده من تغيير أساسى .

ولا شك أن النتائج المباشرة لهذا الاعتراف أو الانتقاد الذاتى أشبه بتجديد العقيدة والمبدأ . وقد قال لى طبيب أسنان فى بكين إنه لما اعترف أمام زملائه ، شعر بالسعادة والتخفف من عبء ثقيل . وقال أستاذ فى الفلسفة إنه اعترف بخطأ جميع معلوماته السابقة وبضررها وزيفها . بيد أن هذا الشعور بالتخفف والراحة إنما هو شعور مؤقت ، ولا تتحقق نتائج دائمة إلا على أساس الإرهاب ، أو الفزع الذى يوجه الاعتراف العلنى .

إن « مصالح الجمهور » تحتل مكان الله والضمير فى القاموس الشيوعى ، وقد انتفت الكرامة الإنسانية ما دا م الفرد يجب أن يشى بذويه. وابتدأت تلك الحملة بقصد تنقية الحزب والجهاز الحكومى من الفساد ، فانقلبت إلى صراع جماعى ضد طبقة البرجوازية الوطنية والقضاء عليها . أما نتيجة ذلك أو أثره فى الاقتصاد الصينى فسوف يظهر فى المستقبل . ولقد أدرك الزعماء أن الحركة تجاوزت ما كان مقصوداً منها ، فحاولوا وضع حد لها فى أبريل ، قبل حلول أول مايو ومجىء الزوار لمشاهدة احتفالاته .

وقد تكون هناك أسباب أخرى لوضع حد للحركة ، إذ يقال إن الشيوعيين مقتنعون بوقوع حرب شاملة فى المستقبل القريب . ولذلك تشعر الصين بضرورة الاتحاد بين شعبها ، وتطهيره من العناصر المشكوك فى ولائها . ولقد قام « تشوان — لاى » وغيره بإضفاء أهمية دولية على حركة « سن وو فن » . ولا ندرى مدى هذه الأهمية ، ولكن يجب أن نذكر أن الحركة بدأت فى أول فبراير ١٩٥٢ ، وتبعها فى ٢٢ فبراير اتهام الولايات المتحدة باستخدام الميكروبات والجراثيم فى الحرب الكورية ، وقد لا تبدو فى الظاهر أية علاقة بين الحملتين ، ولكنهما تهدفان معاً إلى توحيد البلاد فى الداخل وكسب ما يمكن كسبه من المؤيدين ورجال الطابور الخامس فى الخارج ، فيما لو اشتعلت نار حرب عالمية جديدة .

الفصل الرابع

حرب الجراثيم والمكروبات



كنت على وشك الانتهاء من زيارتى الثانية لمدينة « بكين »، عندما علمت أن الوفد الهندى سيزور المعرض الحربى . ولم أعلق أهمية على ذلك ، إذ لم يدر فى خلدى أن المعرض كان يعنى بتهمة حرب الجراثيم والميكروبات ، ويحاول إقناع الناس بأنها حقيقة واقعية لا مجرد أنباء وإشاعات . وكان العرض ذا ثلاثة أقسام : حاول القسم الأول إثبات أن الولايات المتحدة كانت منهمكة فى مباحث الحرب الجرثومية ، ولذلك احتوى على عدد من المجلات الأمريكية العسكرية والصحف والكتب العلمية التى تبحث تلك المسألة وإمكانياتها . واستشهدت الحكومة على ذلك باستخدام اثنين من اليابانيين فى كوريا ، هما القائدان « شيرو ايشى » « وجيرو وكناتسو » اللذان كانت لهما صلة وثيقة بدائرة المباحث

اليابانية فى هاربين عام ١٩٣٦ .

وعُرضت فى القسم الثانى نماذج مختلفة ، من بينها شظايا قنبلة زعموا أنها سقطت فوق كوريا الشمالية وفيها ذباب وبعوض موبوء . كما عُلقت رسوم الأماكن التى سقطت فيها القنابل المزعومة ، ورسوم أخرى بدا فيها أعضاء لجنة التحقيق يقومون بالكشف السريع على تلك الأماكن ، فى أردية بيض وأحذية من المطاط وعلى وجوههم الأقنعة الواقية . وقد ذُكر على الرسوم تاريخ سقوط القنابل وتاريخ القيام بالتحقيق . ولفتت نظرى صورة لميدان سباق فوشون ، حيث قيل إن قنبلة سقطت فى فبراير ١٩٥٢ ، وحيث ذهبت لجنة التحقيق « للكشف السريع » . . . فى ٢٤ مارس! وكان فى الغرفة جهاز تسجيل ذو مكبر للصوت ، يذيع اعترافات اثنين من رجال سلاح الطيران الأمريكى . وكانا أسيرى حرب منذ أن أسقطت طائرتهما فى كوريا فى يناير ١٩٥٢ ، وهما « كنت اينوك » و « جون كوين » ، وقد صرحا فى بيانهما المسجل بأنهما أغارا على ك ريا الشمالية عدة مرات بين ٤ و ١٣ يناير وألقيا عدة قنابل زعما أنها قنابل جراثيم . وذكرا ما تلقياه قبل ذلك من دروس وتمارين فى الحرب الجرثومية ، واختتما تصريحهما بالقول « لا نظن أن الشعب الأمريكى يوافق على اصطناع حرب الجراثيم ، ولكنه يجهل الحقائق » وفى صندوق زجاجى عُرض تصريح كل منهما مكتوباً بخط يده كما زعموا .

أما القسم الثالث من المعرض ، فكان فيــه عــدد من المجاهر (المكروسكوبات) ومعها مستنبتات لمختلف الجراثيم ، زعموا أنها أخذت من الخنافس والبق والذباب والبراغيث والعناكب والبعوض وغيرها من الحشرات التى كان كثير منها غريباً عن كوريا . وكانت فيه أيضاً مجموعة من نماذج وعينات لتلك الجراثيم ، وصور لثلاث ضحايا قيل إنهم ماتوا بالطاعون من جراء ذباب موبوء ألقت به الطائرات الأمريكية ، بالإضافة إلى طائفة من الإعلانات ، بينها إعلان كبير يقول بوقوع ٨٠٤ غارات وبائية جوية على ٧٠ منطقة من كوريا والصين الشمالية ، ما بين ٢٨ يناير و ٣١ مارس ١٩٥٢ ، وكانت الصور والإعلانات تحمل عناوين وإيضاحات بالصينية والروسية والإنجليزية . وطاف المترجمون بأعضاء الوفد الهندى فى جميع أرجاء المعرض ، يقرأون لهم كل كلمة فى الإعلانات والصور ، وظلوا على ذلك طيلة ثلاث ساعات . ثم قادوهم كالعادة إلى غرفة مجاورة حيث قدموا لهم الشاى والفواكه ، وطلبت السيدة « لى تهـتشوان» وزيرة الصحة التى رافقت السيدة بنديت مدة التجول فى المعرض ، أن تسمع تعليقات أعضاء الوفد ، كما كان المترجمون قد كلفوا بالإصغاء إلى كل مايتلفظ به أعضاء الوفد من ملاحظات . وكانت المسألة دقيقة ، فتداركتها السيدة بنديت بإلقاء كلمة شكر مقتضبة . وبعد ظهر ذلك اليوم اتصل بى ضابط الاتصال تليفونياً ، وأصر على أن أزور معرض حرب

الجراثيم ذلك المساء قبل افتتاحه رسمياً للجمهور. ولم يقتنع ضابط الاتصال باعتذارى بأنى زرته صباح ذلك اليوم ، بل أصر على أن أزوره ثانية، قائلا إنه سيعقد آنذاك مؤتمر صحفى يتيح لى إلقاء الأسئلة لعله بذلك يستطيع الاطلاع على آراء الوفد بشأن المعرض .

ويا له من مؤتمر صحفى! لقد حضره جميع أعضاء اللجنة التى أجرت « الكشف السريع » ، بما فيهم الأطباء وعلماء الحشرات وعلى رأسهم « تشو- شوتنج » نائب رئيس لجنة السلام الصينية ، كما حضره ممثلون عن وكالات أنباء تاس وبرافدا وفيتنام وعدد من المخبرين الصينيين ، والسيدة كونج ينج رئيسة مكتب الاستعلامات فى وزارة الخارجية . وكلف هؤلاء أن يطوفوا فى المعرض ، وأرغمنى ضابط الاتصال على الطواف معهم . وأخذت عدة صور سينمائية أثناء ذلك ، وابتعدت أنا من أمام آلات التصوير ، وسرت أعيد النظر إلى بعض المعروضات لاستيعابها ، فإن معرضاً كهذا سيكون ذا تأثير بعيد على العلاقات بين الشرق والغرب لعدة أجيال، وخاصة أننى كنت مقتنعاً بأن الولايات المتحدة لم تستخدم الميكروبات فى الحرب الكورية ! وأن عملا كهذا مهما تكن مبرراته، سيؤيد ما ذهب إليه الكثيرون من أن الغرب لا يقيم أى وزن لحياة الإنسان الآسيوى . وكانت زيارتى الصباحية قد أقنعتنى بأن المعرض لم يبرهن على أى شىء . فقد تكون مستنبتات الجراثيم قد أخذت من أحد المخابر . وكان التحقيق قد قامت

به هيئة متحيزة . ولعلّ بيانات الطيارين الأمريكيين « أينوك » و « كوين » قد أثارت بعض الشكوك والريب ، ناهيك عن اعتباراتها الإنسانية .

وأقبلت علىّ السيدة « كونج بنج » . وكانت امرأة قوية الإرادة اشتهرت بالصمت والتكتم . وكانت تتكلم اللغة الإنجليزية بطلاقة ، ولكن متى شاءت فقط. واستغربت بحثها عنى بدلا من بحثى أنا عنها ، فأيقنت أنها ستستجوبنى استجواباً دقيقاً ، فلم تتورع عن استعمال الإنجليزية لتسهيل مهمتها . ولم أكن أتوقع أن تبتدرنى فوراً بالسؤال عن رأيى فى المعرض ، فأخذت أتحدث عن ضرورة إقناع الدول المحايدة فى آسيا واكتسابها إلى جانب الصين ، بإحدى طريقتين — إما بيان حقيقة ما قاسته كوريا الشمالية والصين من جراء حرب الجراثيم ، وإما أن تقوم لجنة مستقلة نزيهة بتقديم تقرير عن ذلك . فقالت « ألا تكفى لذلك اعترافات أينوك وكوين »؟ فضربت بالحيطة عرض الحائط وأجبت « كلا ، فأسير الحرب ليس حرًّا ، ولذلك لا يُعتد باعترافه » . قالت « ولكننا نحسن معاملة أسرانا ! وقد أدلى الرجلان بالاعترافات بمحض إرادتهما ، لأنهما أدركا عدم شرعية تلك الحرب» . قلت « قد يكون الأمر ذلك ، ولكنى كنت سجيناً سياسيًّا فى أثناء كفاح الهند فى سبيل استقلالها ، وأعلم تأثير السجن ، حتى ولو كانت المعاملة فيه حسنة » . وهنا اتخذت منى موقفاً جديًّا رسميًّا ، وسألتنى عما إذا كنت سأتقدم بأسئلة فى المؤتمر الصحفى ،

وطلبت إلىّ أن أقدم إليها الأسئلة . ولم أكن قد أعددت أى سؤال ، فذلك كان أول مؤتمر صحفى سأحضره فى الصين ، ولم أكن أدرى إجراءاته الرسمية . فقلت لها إنى مجرد صحفى ، فلا علاقة لأسئلتى بما أعتقد وما لا أعتقد وإنما علىّ أن أبحث عما يلذ للقراء معرفته ، ولذلك فإنى أطلب من لجنة التحقيق أن تقول ماذا تعنى بقولها إنها قامت « بكشف سريع » ، وماذا كان تأثير الحرب الجرثومية فى الصين ، وهل الصين مستعدة لقبول تحقيق تقوم به سلطة مستقلة . وأضفت أنى لا أبالى بعدم الرد على السؤال الثانى إذا كان يُعتبر محاولة للاطلاع على أسرار عسكرية .

وتركتنى السيدة كونيج ودخلت الغرفة التى جلس فيها أعضاء لجنة الكشف ينتظرون رجال الصحافة . وأقبل رجال الصحافة بعد جولة استغرقت ساعتين ، وفى أثرهم المصورون لالتقاط صور المؤتمر . وطُلب منى أن أجلس إلى جانب الرئيس « تشو — تنج » ، الذى نهض وألقى خطاباً قصيراً قال فيه إن البيّنات تكفى لإقناع أى مشاهد بصحة التهم رغم إنكار السلطات الأمريكية . ثم دعانى إلى طلب أية معلومات من اللجنة : فبدأت بإيضاح الغاية من أسئلتى ، دفعاً لأى سوء تفاهم ، فإنما أبغى تأدية مهمتى كصحفى ، ولا علاقة لأسئلتى بآرائى الخاصة . وطرحت أسئلتى الثلاثة السابقة . وقام على الأثر مندوب وكالة تاس وسأل : هل كانت الحشرات من أنواع غير موجودة فى الصين ؟ ومن أين أتت ؟

وتلاه مندوب وكالات فيتنام فأيد نضال الصين ضد الاستعمار الأمريكي.
وسأل الصحفيون المحليون عن تأثير الحشرات على المزروعات والحيوانات.
وقيدت الأسئلة ورفعت الجلسة مؤقتاً ، واستؤنفت بعد نصف ساعة.
وتدفق سيل من الخطابات الصاخبة الساخطة عليّ ، لاجترائي على السؤال عن معنى «الكشف السريع» في مكان الحادث ، إذ بدا لهم أني أشك في الحقائق المعروضة في المعرض ولا أثق بهم. ولعل الصين لم تشهد حادثاً كهذا ، فقد ألفت الموافقة التامة والتصديق السريع. وقد خاطبني كل من أعضاء اللجنة بدوره ، وأكدوا غاضبين أن التحقيق أجرى بمعرفتهم شخصياً حين زاروا مواقع سقوط القنابل ، وقابلوا الأهالي وجمعوا الأدلة المادية.

وأضافوا : « إذا شئت مزيداً من الإثبات ، فإليك الحادث الذي وقع يوم ٢ أبريل ، حين أسقطت الجراثيم على الأستاذ واي شي ومراسل إنجليزي لصحيفة الديلي ويركر وهما يتجولان في الحقول ». وابتسمت لدى سماع اسم مراسل الديلي ويركر ، إذ لم يكن سؤالي متعلقاً بكيفية القيام بالتحقيق ، وإنما بالصورة التي بدا فيها رجال في أردية بيض وأحذية من المطاط بعد مضي شهر على سقوط القنابل يتفحصون المنطقة كأنما يبحثون عن الجراثيم ! ! . وأبت اللجنة أن تذكر أي شيء عن تأثير القنابل في كوريا والصين ، بحجة أن ذلك هو ما يريد الأمريكيون أن يعرفوه. وأصرت اللجنة على أن حرب الجراثيم استمرت من يناير حتى

يونيو . وهو أمر بعيد الاحتمال لا يصدقه عاقل فى آسيا . لقد كان من الممكن تصديق اتهامات الصين لو أنها كانت أكثر اعتدالا وأقل تهويلا وتهويشاً . أما هذه المبالغة فإنها فضحت التهم التى توجهها الصين إلى أمريكا كمجرد دعاية لا أكثر ولا أقل .

وكان سؤالى الرئيسى هو « هل توافق الصين على إجراء تحقيق حيادى مستقل»؟ فأجابت اللجنة بأن لجنة السلام الصينية سبق أن اقترحت الحاجة إلى لجنة مستقلة ، وأن الصين ترحب بقيام تحقيق مثل هذا التحقيق إذا وثقت من نزاهته . وامتد المؤتمر إلى ما بعد منتصف الليل ، وشعرت بالجوع والتعب . ولم يأت المؤتمر بأية فائدة ، اللهم إلاّ إتاحة الفرصة لأعضاء اللجنة لإظهار ولائهم الخالص أمام رجال الصحافة . . وسرنى أن نقلنى ضابط الاتصال فى سيارته إلى الفندق .

وكنت قد قدمت طلباً لمقابلة « كومو — جو » نائب رئيس الوزراء ، إذ أرسلت أسأله كتابة عما إذا كان مجلس السلام الصينى يوافق على أن تقوم لجنة مستقلة بالتحقيق فى تهم الحرب الجرثومية ، واقترحت ضماناً للنزاهة أن يعين أعضاؤها من أشخاص يوافق عليهم الطرفان . واستقبلنى فى منزله ، وكان رجلا مثقفاً وشاعراً مبدعاً وعالماً من علماء الآثار فى الصين .

وكان بالإضافة إلى ذلك خطيباً مفوهاً حسن الإلقاء سلس العبارة ،

قال بصدد اللجنة المقترحة ونزاهتها « إذا رأى فرد أو عالم أو محام قطعة من الكعك مثلا ، وكان مستعداً لوصف ما رأى ، فهو فى نظرنا شخص نزيه غير متحيز . والعالم الذى يرى الأسود أسود ، وليس ما يمنعه من الاعتراف بذلك ، جدير بأن يحقق فى تلك التهم. وكثير من الناس من يرى الأسود فيسميه رمادياً . ولكن من العلماء والمحامين والسياح من يشبه مرآة تعكس الحقيقة كما هى. ومثل هؤلاء جدير بتأليف اللجنة وهم ليسوا محايدين بل هم إلى جانب الحق . ولا يكون المرء نزيهاً لأن فئة قليلة اعتبرته كذلك ، بل يجب أن يكون الحكم عليه من قبل الرأى العالمى ، أى رأى أكثرية سكان العالم » فاعترضت قائلا أن لا سبيل إلى معرفة الرأى العالمى ، وليس لنا إلا أن نسمى أعضاء يوافق عليهم الطرفان .

فقال « من المستحيل أن تجد أشخاصاً يوافق عليهم الطرفان . فالأمريكيون لا يوافقون على جماعة من العلماء نوافق عليها نحن » فسألته : « هل توافق الصين على لجنة تختارها البلدان الأسيوية ويكون أعضاؤها من الآسيويين » ؟ فأجاب « إن مجلس السلام العالمى يقوم الآن بتعيين لجنة ، ونحن نرحب باشتراك الهند فيها » .

وهكذا يجب على ما يسمى أسود أن يظل أسود . فالصين التى كانت ترى ألواناً عديدة بين الأسود والأبيض ، قد أغمضت عينيها وصممت على التبشير برسالة البغضاء .

ولم أكن أتوقع أن أمر بموقع الحرب الجرثومية فى خلال زيارة موكدن . فقد لاح لى ونحن فى طريقنا إلى فوشون ، ميدان السباق مهملا ، نمت فيه الأعشاب ترعاها الماشية ، ولم يبد أى أثر للقنبلة الجرثومية التى اقتضت « الكشف السريع فى مكان الحادث » . ولفت نظر المترجم إلى القاعدة المبنية من الخرسانة ، فأفضى بى ذلك إلى المصاعب ، إذ تذكرت السلطات فجأة مسألة الشهادات الصحية ! ! ، فنبهونى بعد منتصف الليل إلى أنى لا أحمل شهادة تلقيح ضد الطاعون ، ولا يمكننى أن أدخل الصين من منشوريا بدونها ! ! وندمت على أنى ورطت نفسى ، ولم أستطع النوم فى القطار وأنا أفكر فى أنى سأحتجز فى الحجر الصحى . وقيل لى فى الثالثة صباحاً إنه قد يجرى تلقيحى فى المحطة فيسمح لى بمتابعة السفر ! وبعد ساعتين استقبلنى طبيبان فى أردية بيض وأقنعة واقية ، وكان أحدهما يعبث بحقنة فى يده العارية ، وبعد لأى دس الإبرة فى ذراعى . وإنى أقسم أن قطرة من اللقاح لم تدخل فى جسمى ! ! !

وفيما نحن على وشك مغادرة الصين بعد بضعة أيام ، سأل أحدنا عن سبب تلك المهزلة — مهزلة التلقيح بالجليكوز بحقنة تالفة . فأجاب الصينى « إننا نعلم أن المناعة الناجمة عن اللقاح لا تبدأ إلا بعد مضى عشرة أيام . ولكننا ظننا أن بقاء هوثيسنج معنا سيساعدنا على مراقبة أعراض الوباء . ثم إن الحقنة لم يكن فيها جليكوز» ! ! !

الفصل الخامس

الدكتاتورية

غادرنا بكين لزيارة بعض المدن الساحلية ، فى قطار خاص به عربات للنوم ومطعم . واستطعنا أن نرى من خلال النوافذ الفلاح الصينى مكباً على عمله فى مزرعته الصغيرة ، أو فلاحة تسير بحمل ثقيل معلق على عصا فوق كتفها . وتوقف القطار ذات مساء عند تقاطع الطرق ، ورأينا فى ظلام الغسق أشباحاً مرسومة على صفحة الأفق ، وتبين أنها إحدى عائلات الفلاحين تأخذ قسطاً من الراحة على الطريق ، وإلى جانبها حمار مشدود إلى المحراث . وأدركت إذ ذاك شدة تعلق الإنسان بالأرض وسط الشدائد والمحن .

وصلنا مدينة تاتونج ذات الآثار الدالة على الصلة الثقافية بين الهند والصين. فى القرن الخامس جاء راهب هندى اسمه « كيكيا » إلى بلاط « باى واى » الزعيم المنغولى الذى أسس دولته هنا ، فظلت تاتونج ألف عام تنافس بكين كمركز للثقافة والسلطة . وعلى مقربة من المدينة شرع

« كيكيا » وتلاميذه فى حفر مغاور يونج كانج الشهيرة . واستغرق الحفر خمسين عاماً ، نحتت خلالها تماثيل هائلة لبوذا على طراز « غوبنا » التقليدى فى الهند . وكان الهنود يسافرون عبر أفغانستان وآسيا الوسطى يحملون معهم آثار الفن الفارسى والإغريقى . ولا تزال توجد سلسلة من الكهوف البوذية تمتد من « أجانتا » فى أواسط الهند إلى باميان (فى أفغانستان) وسنكيانج وتون — هوانج (فى الصين) .

وتقع الكهوف على بعد عشرة أميال من المدينة ، على ضفاف نهر هادئ . وكان ارتفاع التماثيل خمسين قدماً ، وهى تطل على الوادى ، تشع منها المعرفة والهدوء والسلام . وكان بينها تمثال بوذا ميتريا ، المسيح العتيد جالساً على عرش من الأسود . بيد أن المستقبل الذى تخيله أتى بثمار البغضاء والخوف والعجرفة والتعصب . لقد ظلت الهند والصين ألفى عام فى صداقة وسلام تعالجان فن الحياة . فهل يجب أن يزول كل هذا ، لتصبح الحياة سجناً ؟ لقد ضُحِّى بالملايين لتستأثر فئة قليلة بالسلطة. حقًّا إن مأساة هذا العصر هى أن تصبح الصين الوادعة المتسامحة فريسة التعصب الذميم الذى لا يرحم .

وكانت التماثيل مهملة منبوذة ، وقد نقل أكثرها جيشُ الاحتلال اليابانى ، وحل محلها « كوكب الصين المنقذ » الجديد . كانت تاتونج منجماً ينتج آلاف الأطنان من الفحم ، فلم نعد نرى اليوم سوى قوافل

صغيرة من البغال تنقل الفحم من المناجم . وكانت الرحلة من تاتونج إلى السور الكبير رحلة إلى الوراء فى تاريخ البشر . لقد بذل آلاف من الناس أرواحهم لبناء تلك الأعجوبة العالمية فى سبيل الدفاع ضد العدوان . ولكن السور لم يستطع دفع العدوان ، وقد اكتسحه الغزاة مراراً . واليوم يقبع الغازى داخل السور ، وقد وقف جندى من جيش التحرير للحراسة . إنه رمز الصين الجديدة التى لم تعد تختبئ خلف السور . بل برزت لتوحيد آسيا والعالم أجمع . هى ذى الصين التى عانت الاضطهاد والاستعمار دهراً ، قد حطمت أغلالها لتغل بها الآخرين ، جلسنا على السور مع زوار من بلدان أخرى ، نتحدث عن جهود البشر التى ضاعت فى بنائه . وغنينا أغانى بلادنا ، وأنشدنا أناشيد السلام والحرية . كان السور مثالا ناطقاً على أن الحرية لا تصان إلا إذا اكتنزها الإنسان فى قلبه ودافع عنها بمحض إرادته ، فلا الأسوار تحميها ولا الجيوش تدرأ عنها العدوان .

وكانت الرحلة إلى موكدن تتبع طريق التحصينات العديدة التى تعيد ذكرى الحروب فى تلك المنطقة . ولقد حاول كل من اليابانيين والروس والكومنتانج استغلال تلك المنطقة الغنية التى لا يستغنى عنها الاقتصاد الصينى . وكان المنشوريون قد تغلغلوا جنوباً ليحكموا بكين ، أما الآن فالجنوب يطغى شمالا إلى موكدن . ورأينا النفوذ الروسى منتشراً فى منشوريا . وكانت أكثر اللافتات مكتوبة بالروسية ، وكانت صور ستالين وماو تسى

تونج فى كل مكان لتذكر الناظر إليها بألا معدى للصين عن معونة روسيا .

وانتقلنا من موكدن المدينة الصينية ذات المبانى الشامخة والشوارع العريضة ، إلى تينتسن المدينة الغربية التى استحالت إلى مدينة صينية صميمة ، وقد خلت من الأجانب إلا نفراً منهم يجلسون فى مقهى البلدية فى انتظار التصريح لهم بالخروج . أما نانكين فإنها مدينة قديمة على رغم قصورها الباذخة وشوارعها المنسقة . ولقد عاش فيها شيانج حقبة طويلة أبى أن يرى خلالها نذر هزيمته فى مجتمع منحط متداع ، فعجز عن استخدام سلطته فى مصلحة الشعب . وبات قصره المنيف خاوياً على عروشه . كان صون يات — سن قد حاول فى ثورة ١٩١١ أن يحرر الصين من الإقطاعية والاستعمار الغربى . ولم يتمكن وطنيو الكومنتانج من تحقيق ذلك ، لأنهم هادنوا الإقطاعيين بدلا من أن يقضوا عليهم ، واعتمدوا على الاستعمار الغربى بدلا من أن يقاطعوه . وهكذا طُرد تشيانج كاى — شك من الصين ، ولن يعود إليها . والراية الحمراء ترفرف فوق مدينة نانكين الشبيهة بمدينة الموتى . ما أجمل ضريح صون يات — سن التذكارى ! إنه يطل على مناظر خلابة فى الوادى المحيط ؛ وفى جمال هندسته وروعة تنسيق حديقته ما ينم على ما تكنه الأمة من ولاء لمبادئه الثلاثة التى دفنت معه ، لتقوم عليها أسطورة كدعامة للدكتاتورية التى خلفته .

وأبدى أحدنا أسفاً شديداً على الزعيم الفقيد عندما كنا نزور ضريحه ،

ظناً منه أن الديمقراطية الشعبية تؤمن بالدكتور صون يات ــ سن ، وأفاض في الإشادة بعظمته في شتى المناسبات . فلم يطق الشيوعيون ذلك ، وأوعزوا إليه بالكف عن ذكره قائلين : إننا نحترم صون يات ــ سن ، ولكننا لا نريد الإفاضة في ترديد اسمه علانية .

وشنغهاي ! كانت يوم زرناها تقاسي حشرجة الموت البطيء . كانت في زمانها دولة مستقلة تضم أصحاب الملايين والمشاغبين والانتهازيين يعيشون في ترف وبذخ . لقد أصبحت متاجرها خاوية ، وكسدت تجارتها وخلت شوارعها إلا من مئات مركبات الخيل . إنها مدينة لا مستقبل لها . فإن معظم صناعتها ، كما قيل ، قد نُقل إلى داخل البلاد . وينتظر آلاف من سكانها صدور الصحيفة صباح كل ثلاثاء ، لعل فيها البشرى السارة بحصولهم على تصريح بالخروج . وكان من المبهج أن ترى فيها النساء متبرجات يرتدين الثياب الأنيقة ويتقن تسريح شعورهن . بيد أن الرعب كان كامناً في أعينهن وملامحهن . وبدت لي شنغهاي كالسجن الكبير ، فلم أطق المكث فيها . كان الشيوعيون فلاحين . فحاولوا تجنباً للفشل في المدن الكبرى ، القضاء على تلك المدن لئلا تسيطر عليهم فيها القوى المناوئة للثورة . فقد برهنت حملة « سن فن » على استحالة استئصال الفساد من إدارة دواوين مركزية . والمنطق الشيوعي لا يتلاءم مع الإيمان بالديمقراطية الجديدة . فلذلك اعتمدوا على تلقين الشبيبة وغسل عقول كبار السن ،

وعلى التجسس والاعترافات والانتقاد الذاتى والتصفية .

ولم نستطع الاختلاط بالجماهير فى طوافنا بالمدن الكبرى ، ولا الاطلاع على أحوالهم . فالصحافة تتجاهلهم ، ولا تذكر شيئاً عن أفراحهم وأتراحهم ، وإنما تنشر ما تمليه عليها بكين . ولم يكن الشعب يقترب من الأجانب أو يتحدث إليهم . وكانت المآدب والاستقبالات الرسمية جافة تتكرر فيها نفس خطب الترحيب والتغنى بالسلام والوحدة الآسيوية والتنديد بالاستعمار الأمريكى ، بحيث حفظناها عن ظهر قلب ، ولم يكن من حاجة إلى ترجمتها . ولم تكن الحالة فى الريف غيرها فى المدن ، ومع أن الثورة بدأت فى الريف حيث بعث إصلاح الأراضى آمالا كباراً ، فإنها لم تحقق اقتصاداً زراعيًّا ثابتاً . لقد بعثت الثورة فى الفلاح شعوراً بالقوة ، مارسها عن طريق جمعيات الفلاحين ، فرغب فى أن يترك وشأنه ليفلح أرضه ويغنى ، ولكن الشيوعيين يأبون عليه ذلك ، ويريدون ترويضه بالدعاية والتلقين والسيطرة على الأسواق ، لحمله على الاستعداد لنظام المزارع الجماعية المرتقب .

وزرنا قرية « كوفو » حيث يوجد ضريح « كنفوشيوس » . ويبدو أن الدعوة إلى المصلحة المشتركة لم تستطع إزالة غبار الأجيال . فالقرية عبارة عن مجموعة أكواخ متداعية قذرة ، وأهلها فقراء منهوكون . لقد عاش « كنفوشيوس » فى تلك القرية يبث تعاليمه قبل ألفى عام ، تلك التعاليم التى نصت على التقوى النبوية ، وعبادة الأجداد ، والتدرب على الفضائل ،

واحترام الحكمة والمسنين ، وأصبحت جزءاً من كيان الشعب . وظل الشعب آنذاك حرًّا فى شؤونه الخاصة ما دام يؤدى واجباته الاجتماعية . فلو لم يكن « بو تشو – اى » حرًّا ، لما كتب فى القرن التاسع يقول :

وأنا على فراش المرض
فى العام الماضى
نذرت ألا أمس قطرة أخرى من الخمر
ما دمت حيًّا
ولكن من كان يدرى فى العام الماضى
ما سيجىء به ربيع هذا العام ؟
فهأنذا أعود من منزل ليو
فى أشد حالات الثمل

لقد أبيدت الإقطاعية ليحل محلها دكتاتور يحكم باسم الشعب . وتتحدث الصين الجديدة عن الديمقراطية ، ولكن لا حرية للفرد فى ظل الشيوعية ، التى تعتبر الفردية مدعاة إلى الفساد والرشوة والطمع فى السلطة . وأما الحريات التى ينص عليها البرنامج العام (الدستور) مثل حرية القول والفكر والنشر والاجتماع والإقامة والعقيدة – فإن الشخص الوحيد الذى يتمتع بها هو الديكتاتور ! وقد استعيض عن الحرية « بالمصلحة العامة » ، وعن حقوق الفرد « بالواجب نحو الشعب » . ولما كان الشعب خاضعاً

للحكم الشيوعى ، فإن الفرد لا حرية له ، كما أن القانون لا سلطان له . وكيف تتحقق حرية القول والنشر ما دامت المطبوعات والصحافة مرغمة على « ألا تخالف قوانين حكومة الشعب ، وألا تنشر من الدعاية ما يؤذى الديمقراطية الجديدة ؟ » إن معارضة البرنامج العام (الدستور) أو الحزب الشيوعى تُعتبر خيانة . ولا مصدر للأنباء إلا الحكومة ، ولا تنشر الصحف إلا آراءها . حتى الأنباء الأجنبية لا تذاع إلا بأمر الحكومة . وقد كنت فى نانكين يوم اغتيل لياقت على خان رئيس وزراء الباكستان السابق . فلم تنشر صحف الصين النبأ ، ولم نسمع به إلا من أحد موظفى السفارة الهندية . وأردنا الاستماع إلى إذاعة الهند ، فقيل لنا إن الإذاعات الأجنبية لا تصل إلى الصين ! !

أما الأدب والفن والمسرح والسينما ، فكلها خاضعة للسياسة الشيوعية ولخدمة أهداف الثورة . « وماو تسى تونج » نفسه الذى استمد سلطانه من اختلاطه بالشعب ، قد انزوى خلف أسطورة الكوكب المنقذ ! ! . وعلى رغم مصاعب اللغات ، فإنى لم أشعر فى أى بلد زرته بمثل ما شعرت به من العزلة وأنا فى الصين . وما يصدق على حرية الرأى يصدق على حرية التنقل أيضاً ، فهى مفقودة فى الصين ، إذ لا يجوز أن ينتقل أى فرد من منطقة إلى أخرى إلا بإذن من الشرطة ، مما يقتضى الانتظار والتدقيق وتقديم الأعذار . وكذلك فرضت قيود شديدة على مغادرة البلاد . وقد

يستغرق الحصول على تصريح بالخروج عدة أشهر . بل إن الانتقال من منزل إلى آخر للسكنى فيه يتحتم إبلاغه إلى الشرطة فى نفس اليوم . ولقد اعتبر « ماو تسى تونج » أن من مهام الثورة تقوية البوليس الشعبى ، إذ كان لا بد من اصطناع الإرهاب فى عملية توحيد الشعب . ويتم الإشراف على الفكر وغسل العقول والاعتراف الذاتى ، بواسطة التربية والدعاية واللجان المحلية ، حيث تشجع المرأة على الوشاية بزوجها والابن بأبيه .

وقد حدا المنطق الدكتاتورى بالشيوعيين إلى تنظيم حملات تطهير وتصفية بين وقت وآخر . وهم يسمون الصين ، « الديمقراطية الجديدة التى يعتبر فيها العمال والفلاحون والبرجوازية الصغرى والبرجوازية الوطنية أصدقاء أربعة ينعمون بالحريات الديمقراطية فى ظل الحزب الشيوعى » . وقال ماو تسى تونج فى هذا الصدد : « تختلف الديمقراطية الجديدة مبدئياً عن الدولة الاشتراكية التى تستأثر الطبقة العاملة فيها بالحكم . ولا يمكن للصين فى مرحلة الديمقراطية الجديدة أن تقوم فيها حكومة دكتاتورية يستأثر بها حزب واحد أو طبقة واحدة » ولذلك ، فإنهم يزعمون أن حكومة الصين اليوم هى حكومة ائتلافية تشترك فيها الأحزاب التى ناهضت الكومنتانج ، وأن اشتراك تلك الأحزاب يؤيده الحزب الشيوعى نفسه ! !

وكنت فى بكين حين ظهرت فى الصحف مقالات كتبها شبان أرادوا الانضمام إلى الحزب الشيوعى ، فأوعز إليهم بالانضمام إلى أحزاب أخرى

بدلا من ذلك . إن أعضاء الحزب الشيوعى يربون اليوم على خمسة ملايين . ولما كانت طبقة العمال فى البلاد لا تزيد على المليونين ، فإن أكثرية الحزب من الفلاحين ، ومن ثم فإن الإيعاز إلى الشبان بالانضمام إلى أحزاب أخرى إنما هو من قبيل الدفاع عن النفس ، لأنهم من الفلاحين ، وكثيراً ما كتب ماو تسى تونج يقول : « إن نقطة الابتداء هى خدمة الشعب الصينى بإخلاص وعدم فصم الصلة به » ولكن الشيوعيين لم يحاولوا مرة تحليل إرادة الشعب وتفهمها . فالبرنامج العام (الدستور) والائتلاف والديمقراطية الجديدة تقوم جميعها على أساس زعامة الحزب الشيوعى . وقد كتب جاك بلدن يقول : « ليس مبدأ ماو تسى تونج القائل « تعلم من الجماهير ثم علمهم » إلا تحويراً لمبدأ لوبولا القائل : « اتبع طريق الشخص الآخر فى سبيل هدفك الخاص » فقد كان الشيوعيون فى السابق يهتفون للأحرار والطلاب ويهاجمون الطغيان ، فلما حققوا غايتهم ، أصبحت الحرية من نصيب « الشعب » وحده لا من نصيب « الرجعيين » ! ! . وما الرجعى هذا سوى من يعارض دكتاتورية الحزب الشيوعى .

* * *

انك الرمز المشرق والعلم المنتصر الخفاق
عاش ماو تسى – تونج المبجل
ما أسعدنا بالعيش فى عهدك والنسج على منوالك
سنتبعك وندخل عالماً جديداً .

ولقد خبت جذوة الثورة التى جمعت بين مختلف الأحزاب والطبقات والسياسات ، والتى استغلها الشيوعيون فى دحر الكومنتانج . وأخذت الشقة بين الشعب والحزب تتسع ، إذ اعتزل ماو تسى تونج الشعب ، بينما يدلى « ليو شاو– تشى » بنظرياته عن الماوية . وفيما يحاول هذا تفسيرها كتطور طبيعى من اللينينية والستالينية ، تتردى الصين فى مهاوى النظريات لحل مشاكلها . وما الحكومة الائتلافية فى الحقيقة إلا حكومة الحزب الشيوعى . وما بقاء الهيئات الأخرى إلا نتيجة لتفاعل تاريخى سابق . وتتوقف سرعة زوالها على التطورات الدولية أكثر مما تتوقف على الظروف الداخلية . كما أن السيدة صون يات– سن أسيرة تعهداتها للشيوعيين ، ولم تبق إلاّ لأنها زوجة ذلك الزعيم .

وتوجد اليوم فى الصين أربع من المناطق الست تحت إدارة عسكرية . والقواد الذين يديرون دفة الحكم فيها هم من أعضاء الجيش الأحمر القدماء. وقد دُرّب جيش التحرير على اعتناق العقائد الجديدة ، كما أفاد من الحرب الكورية . ويشير البعض إلى احتمال نشوب خلاف بين الجيش والحزب ، غير أن الجيش يدين بالولاء « لتشوته » ، وهذا يدين بالولاء لماوتسى تونج الذى حرص على ألا يعين لمنطقة ما قائداً له فيها أى نفوذ محلى .

وليست الديمقراطية الجديدة ديمقراطية إلا بالاسم . وليس الائتلاف

إلا صورة زائفة . ولا صوت للشعب فى وضع سياسة البلاد . إنهم يدفعونه إلى الهتاف ليوهموه بأنه يساهم فى تنفيذ سياسة حكامه . فإنما الصين دكتاتورية طاغية، أسيادها الزمنيون والروحيون هم الشيوعيون الذين أطاحوا بالآلهة القديمة عن عروشها ، بإيهامهم بأن آمال البشر قابلة للتحقيق فى هذه الحياة .

إن الصين ترتع اليوم فى سلام ، وتنعم بالنظام فى الداخل . هذا هو السلام العظيم الذى ينشده الملايين ليفلحوا أراضيهم ويأكلوا خبزهم اليومى . بيد أن ما جنوه من إصلاح الأراضى لا يلبث أن يبدو سراباً حالما تشتد وطأة تزايد السكان . ثم إن سياسة الشيوعيين الخارجية، قد قيدت البلاد باستعمار جديد يحاول السيطرة على عقول الناس لا على أجسادهم فقط . ولاشك أن هذه الديمقراطية الجديدة الزائفة إنما تسعى إلى حتفها بظلفها، لأنها تزرع بذور انحلالها بنفسها . وعدا ذلك فإن الأمل فى مستقبل الصين يكاد يكون معدوماً .

وأخيراً كان « ماو تسى تونج » هو الصنم الذى بنى نفسه ، فهل قُدّر له أن يهدم نفسه أيضاً ؟ !

ملحق :

البرنامج العام

(الدستور)

فى اليوم الأول من أكتوبر عام ١٩٤٩ أعلن ماو تسى تونج فى ساحة بكين العامة تأسيس الجمهورية الشعبية فى الصين . قال « نحن ، شعب الصين الذى يعد ٤٧٥ مليوناً ، قد نهضنا ، ومستقبل أمتنا لا حد لإشراقه وتألقه . وستمارس الحكومة الجديدة دكتاتورية ديمقراطية شعبية وفقاً للبرنامج العام — الدستور — ضمن حدود الصين بأسرها . . . »

ويحتوى البرنامج العام على نحو ستين مادة ، وعلى القوانين الأساسية لمؤتمر الشعب السياسى الاستشارى وحكومة الشعب المركزية . وقد أقر فى الدورة الأولى لمؤتمر الشعب السياسى الاستشارى التى عقدت بين ٢١ و ٣٠ سبتمبر ١٩٤٩ ، وحضرها ٦٦٢ مبعوثاً يمثلون مختلف الأحزاب السياسية ومنظمات الفلاحين والعمال . ويمثل الحزب الشيوعى نظرياً نفس العدد الذى يمثل عشرة أحزاب ، بيد أن حق التمثيل منح أيضاً لجيش التحرير ، والمناطق التى حررها الشيوعيون ، وما يدعى بالمنظمات الديمقراطية للطلاب ، والنساء ، وأصحاب المهن ، عدا منظمات العمال والفلاحين ، وبذلك أصبح الشيوعيون يملكون أغلبية تزيد على ثلثى المقاعد ، مع أنهم

نظرياً يملكون الثلث فقط .

ويُعتبر المؤتمر السياسى الاستشارى هيئة البلاد التشريعية العليا ، وقد خُول سلطة تعديل القوانين والبرنامج العام ، وانتخاب اللجنة الوطنية إلى أن يلتئم المؤتمر الشعبى لعموم الصين . وهو يُدعى إلى الاجتماع مرة كل ثلاث سنوات ، وتتولى اللجنة الوطنية أعماله بين مواعيد اجتماعه . وهى مؤلفة من ١٩٨ عضواً من أعضائه ، وتجتمع مرة كل ستة أشهر تحت رعاية لجنة تنفيذية تشرف على تنفيذ مقررات اللجنة الوطنية فى الفترات الواقعة بين انعقاد دورات المؤتمر الكاملة . وللمؤتمر أيضاً حكومة مركزية ، ومجلس إدارى مؤلف من رئيس ، وستة نواب له ، و ٥٦ عضواً . ويعمل الآن تحت إشراف هذا المجلس خمس لجان و ٢١ وزارة وأربع إدارات ، وبنك الصين الشعبى .

أما رئيس الدولة فهو ماو تسى تونج ، وله ستة نواب يعملون بإدارته ، بينهم تشو ته ، وليو شــو ـ تشى وكاو كانج . وفى المجلس الإدارى رئيس الوزراء تشو ان ـ لاى ، وأربعة نواب للرئيس و ١٦ عضواً . ويتولى تشو ان ـ لاى وزارة الخارجية أيضاً . واللجان التى تعمل تحت إشراف المجلس الإدارى ، تقوم بتنسيق أعمال مختلف الوزارات ، فلجنة الشؤون المالية والاقتصادية مثلا ، تنسق أعمال وزارة المالية والتجارة والصناعة والزراعة والمواصلات . وينتخب المؤتمر الاستشارى أيضاً مجلساً

عسكريًّا ، ومحكمة عليا ، ومكتب النائب العام . ويرأس المجلس العسكرى ماو تسى تونج ، وله ستة نواب هم تشو ته ، وتشو ان ـــ لاى ، وليو شو ـــ تشى ، وكاو كانج[1] وقائدان عسكريان .

ويتولى الحكم فى أربع من المناطق الإدارية الست ، لجنة إدارية عسكرية . وتنحصر الحكومة الشعبية فقط فى الشمال والشمال الشرقى . وقد جاء فى مقدمة البرنامج العام ـــ الدستور ـــ أن الديكتاتورية الديمقراطية هى سلطة جبهة الشعب المتحدة المؤلفة من العمال ، والفلاحين ، والبرجوازية الصغرى ، والبرجوازية الوطنية ـــ ويسمى هؤلاء « الأصدقاء الأربع » ؛ ويحث البرنامج الحكومة على إلغاء الامتيازات ومصادرة رؤوس الأموال وتنفيذ قانون إصلاح الأراضى . ويصرح بأن هدف الدولة هو تحويل الصين من بلاد زراعية إلى بلاد صناعية .

وتنص المادة ٦ من البرنامج العام ـــ الدستور ـــ على حق الشعب فى حرية الفكر والكلام إلخ . . . وتفرض المادة ٨ على كل مواطن واجب الدفاع عن الوطن ومراعاة قوانينه ، والمحافظة على النظام وحماية الأملاك

---

(١) كان كاو كانج يشغل ذلك المنصب أثناء زيارة المؤلف للصين . ولكن كاو كانج أصبح الآن فى ذمة التاريخ ، فقد طرد من الحزب الشيوعى الصينى وتعرض لحملة ظالمة دفعته إلى الانتحار . وكان سبب طرده من الحزب هو انتقاده لدكتاتورية ماوتسى تونج ومطالبته بمنح الشعب الصينى مزيداً من الحرية الفردية .

العامة ، والقيام بالخدمات العامة والعسكرية ، ودفع الضرائب .

وتضع المادة ١١ السياسة الخارجية « تتحد الصين مع جميع البلدان المحبة للسلام والحرية . . . وأولها الاتحاد السوفيتي » . أما بقية المواد فتعالج تنظيم سلطات الدولة ، والسياسة الاقتصادية ، وتلغى قوانين الكومنتانج . فالمادة ٢٦ تقول : إن المبدأ الأساسي للجمهورية الشعبية ، هو تنمية الإنتاج بانتهاج سياسة ترعى المصالح العامة والخاصة وتفيد العمل ورأس المال » والحكومة مكلفة بتنسيق كافة نواحي الاقتصاد ، وتنظيم اللجان الإدارية في المصانع ، ووضع الأسس لتصنيع البلاد وتحويلها إلى دولة اشتراكية . ويضمن البرنامج (الدستور) للأقليات والجنسيات الأخرى داخل الصين حماية ثقافاتها ولغاتها ، والحق في الاستقلال الداخلي . وتنص المادة الأخيرة على « إيواء الأجانب اللاجئين إلى الصين فراراً من اضطهاد حكوماتهم ، بسبب أنهم أيدوا مصالح الشعب وساهموا في النضال من أجل السلام والديمقراطية » .

الفهرس

الجزء الأول

رحلة إلى المدينة المسوّرة

الجزء الثانى

أنتج أو اهلك

الصفحة

الجزء الثالث

السلام العظيم


وديع سعيد